

بين الماضى والحاضر

تأليف

عرفه عبده على

الطبعة الأولى

١٩٩٥



عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية

EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES



مدير النشر: محمد عبد الرحمن عفيفي

تصميم الغلاف : محمد أبو طالب

الناشر : عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية

٦ شارع يوسف فهمى - اسباتس - الهرم - ج.م.ع - تليفون : ٣٨٥١٢٧٦

Publisher: ÉIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

6, Yousef Fahmy St., Spates - Elharam - A.R.E. Tel : 3851276

يا مجمعين الشمـل فى الحضره الزكيـه...

أول ما نبدى القول .. نصلى على النبى...

" فؤاد حداد "

قبـة سيـدنـا الـولـى ، دول نـوروهـا

مـحـلا الـبـيـارق والـنـاس بـيـزوروهـا

قبـة سيـدنـا الـولـى ، ف الجـو عـالـيـه

مـحـلا الـبـيـارق .. لمـا دوروهـا ...

دى الليله الكبيرة يا عمى ، والعالم كتيره

ماليين الشوادر يابا .. م الريف والبنادر"

"صلاح چاهين "

" القاهرة التى تفيض بها أضرحة المشايخ وأهل البيت ورسائل المحبين إليهم ، بعدد سكان الأرض وسكان مصر ، لكل كونه المفقود الذى يبغى العثور عليه ... تبدو حياة هؤلاء المجاذيب بمثابة الحلم المشتهى للمأزومين المتعبين الحيارى .. "

" يوسف إدريس "

" .. والضريح له تاريخ يتنافله الرواه ، ويستقونه من سجلات الذاكرة ، وهى سجلات لارقيب على من يتناولها بالحذف أو الإضافة .. الشيوخ يؤكدون أن آباءهم رأوا سيدى المدبولى رأى العين ، وتحققوا من سره الباتع .. فاذا تحدث إليه أحدهم فى أمرٍ ، أجاب عن أمر آخر ، لأن خفى الألطاف هو الذى يضع الكلام على لسانه .. ويتبادل أهل الفطنة فى تفسير وتأويل كلامه ! .. "

" يوسف جوهر "

فهرس الموضوعات

صفحة

تقديم

في هذه الدراسة .. حرصت على تقديم رؤية شاملة من الواقع للتعرف على عالم بألوان البيارق والأعلام والأضواء والأساطير والمجاذيب والسلاطين والأقطاب ومجالس الإنشاد .. وموروث شعبي هائل !

طوفت في المكان والزمان .. والقلب مشغوف بالرؤية ، والعقل ظمآن للمعرفة .. وما أكثر ما يُرى ويتراءى في هذا العالم الساحر العجيب ! وما رأيت كان مثيراً مدهشًا فوق ما كنت أتخيل . . !

وكم من مرة اتخذت سبيلي بين المساجد والكنائس والميادين والشوارع وطرقات ملتوية متربة تمور بالحركة وتعج بصخب الزحام وكأنني أحث الخطى في حفل تنكري ! . . أي غموض يحيط بهذا العالم . . وأية مشاهد رائعة تلهب المشاعر ، فتخرج النفس من الشعور بالحذر والضجر إلى إنبهار لا ينقطع ! ...

وقد توارثت مصر عبر عصور تاريخية مختلفة ،متصلة .. الاحتفال بالأعياد الدينية والقومية ، من خلال طقوس شعبية مصرية شديدة الخصوصية . وتكاد تجمع المصادر التاريخية على أن مصر قد عرفت مظاهر الاحتفال بالأعياد والمناسبات الدينية . بدءًا من عصر الدولة الفاطمية . حتى أصبحت تلك الاحتفالات جزءًا من وجدان الشعب المصري حتى يومنا هذا !

كما احتفظت ذاكرة التاريخ بتفاصيل مواكب الاحتفالات الرسمية والشعبية الخاصة بمولد النبي ، وبذكرى موالد أهل البيت وأولياء الله الصالحين ، كتقليد مصري خالص ..

ولاحصر ولانهاية للموالد والأولياء في مصر ، ولاحدّ لقصص المعجزات التي تروى عن كل ولي وقديس ، وأضرحة الأولياء التي تنتشر في مدن مصر ونحو ستة آلاف قرية : هي مراكز لإقامة الموالد المريدين والمحبين ، ويمكننا القول أنه من الصعب أن نجد يومًا - على مدار السنة- ليس فيه احتفال بمولد ولي في مكان ما بمصر !

والاعتقاد الشعبى ترسخت فيه فكرة : أن الأولياء والقديسين هم الواسطة بين الإنسان وخالقه .. ولا أتجاوز الحقيقة إذا قلت بأن المعتقد الشعبى يعترف للأولياء بسلطان لاحدود له، ويضفى عليهم من الصفات المعجزه الخارقة للطبيعة ، ما لايختلف كثيراً عما نسبه الفراعنة والإغريق إلى آلهتهم .. وأن المسافة الفاصلة بين الإنسان والذات الإلهية يمكن اجتيازها بسلوك مقامات الطريق .. حتى تكشف الحجب ! .. وينجلى ما هو مسطور فى اللوح المحفوظ فى رؤى منامية تمحو الزمان والمكان .. فيفيض النور على الصدور .. !!

وظاهرة الاعتقاد فى الأولياء ، تكتسب عمقًا أكبر بكثير من الظاهر المباشر ، فالأولياء والقديسين وسلاطين القرى والمدن ، يجسدون أحلام وآلام واحتياجات الإنسان المصرى فى مختلف العصور ، ذلك الإنسان الذى يتمسك بموروثه الشعبى بوعى غريزى ، يصل به إلى جوهره المكنون دون عناء أو تنظير فلسفى .. !

وهؤلاء المجاذيب والدراويش والمريدين والمحاسيب - من المسحوقين فى قاع المجتمع - يخلقون حياة بديلة ، ودينًا محتلفًا ، لكن الحياة البديلة لاتنفى حياتهم الواقعية ، والدين المختلف لاينقض دينهم الأصلى ، تتداخل الأفكار والاعتقدات فيتشكل " الدين الشعبى " الممتزج بموروثات تضرب بجذورها فى أعماق تاريخنا .. تعكس أحلامًا وآمالاً وهمومًا وشطحات لايضيق عنها الخيال .. !

عرفه عبده على

المولد النبوى فى ذاكرة التاريخ

عبر مختلف عصور الدول الإسلامية ، عرفت مصر عدداً كبيراً من الأعياد والاحتفالات التى ارتبطت بعقائد المصريين ودياناتهم ، فقد كان لكل من المسلمين والنصارى واليهود، وأعيادهم ومواسمهم ، التى اتخذت الاحتفالات بها - مظاهر محددة - ارتبطت بعادات وتقاليد الشعب المصرى .

ففى عصر الدولة الفاطمية ، التى نشأت حاملة لواء زعامة الإسلام والخلافة - فى ظروف سياسية ودينية خاصة - كان الفاطميون حريصون على إعادة صياغة عقل الشعب وروحه وحياته العامة والخاصة - وفقًا لتوجيهاتهم ورسومهم ، فنرى الحياة الاجتماعية المصرية ، فى ذلك العصر ، اتخذت مظاهر خاصة ، تألقت بألوان من البذخ والترف والفخامة ، قل أن نجدها فى عصر آخر من عصور مصر الإسلامية ، فكانت هذه الحياة - مرآة للدولة الفاطمية - طبعت بمنهاجها السياسى والدينى والعقلى ، وعلى الرغم من تحفظ الشعب المصرى فى مشايعة الدولة الجديدة فى غاياتها المذهبية ، فقد استمتع بالفيض الفاطمى وروعته فى مواكب الخلافة ، ورسومها الباهرة ، ومآدبها الشهيرة ، وعطاءها المأثور ، ومازال كثير من آثار تلك الرسوم والاحتفالات فى أعيادنا وتقاليدنا الدينية المعاصرة ..

وقد انتهت إلينا صور ومشاهد للمواكب الاحتفالية والمواسم الفاطمية ، بأقلام مؤرخين معاصرين لذلك الزمان ، مثل : ابن زولاق والمسبحى وابن الطوير وابن المأمون ، وكان الاحتفال بالمولد النبوى من أبرز مشاهد الخلافة الفاطمية . فيذكر المؤرخ العلامة المقريزى عن ابن المأمون " .. واستهل ربيع الأول ، ونبدأ بما شرف به الشهر المذكور ، وهو ذكر مولد سيد الأولين والآخرين محمد صلى الله عليه وسلم ، لثلاث عشرة منه ، وأطلق ما هو برسم الصدقات من مال النجاوى خاصة ستة آلاف درهم ، ومن الأحناف من دار الفطرة أربعون صينية فطرة ، ومن الخزائن برسم المتولين والسدنة للمشاهد الشريفه التى بين الجبل والقرافة ، والتى فيها أعضاء آل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سكر ولوز وعسل وشيرج لكل مشهد ، وما يتولى تفرقته سنا الملك ابن ميسر أربعمائة رطل حلاوة وألف رطل خبز " ..

وكانت المآدب الفاطمية والأسمطة الرسمية والشعبية ، من الأحداث الشهيرة فى ذلك العصر، كما كان الخلفاء الفاطميون يشهدون هذه الاحتفالات والأعياد، فى إحدى المناظر

الملكية ، ويحتشد العامة لمشاهدة الخليفة عند ظهوره بالمنظرة ، أو لرؤية موكب قاضى القضاة، والإنعامات والهدايا تشمل كل الأمراء وأرباب الرتب وأصحاب الدواوين وأرباب السيوف والأقلام ، والخطباء والقراء وسدنة المشاهد ..

وعن " ابن الطوير " يقول المقريزى :

" .. فاذا كان اليوم الثانى عشر من ربيع الأول ، وهو مولد النبى صلى الله عليه وسلم ، تقدم بأن يعمل فى دار الفطرة ، عشرون قنطاراً من السكر اليابس ، حلواء يابسة من طرائفها، وتعبى فى ثلثمائة صينية من النحاس ، فتفرق فى أرباب الرسوم من أرباب الرتب ، وكل صينية فى قوارة من أول النهار إلى ظهره ، فأول أرباب الرسوم قاضى القضاء ثم داعى الدعاة ، ويدخل فى ذلك ، القراء بالحضرة والخطباء والمتصدرون بالجوامع بالقاهرة وقومة المشَاهد ... فاذا صُلىّ الظهر ، ركب قاضى القضاة والشهود بأجمعهم إلى الجامع الأزهر ، ومعهم أرباب تفرقة الصوانى ، فيجلسون مقدار قراءة الختمة الكريمة ، ثم يستدعى قاضى القضاة ومن معه ، فان كانت الدعوة مضافة إليه ، وإلاّ حضر الداعى معه بنقباء الرسائل فيركبون ويسيرون إلى أن يصلوا إلى آخر المضيق من السيوفيين ، قبل الابتداء بالسلوك بين القصرين ، فيقفون هناك وقد سلكت الطريق على السالكين من الركن المخلق ، ومن سويقة أمير الجيوش عند الحوض هناك ، وكنست الطريق فيما بين ذلك ورُشت بالماء رشًا خفيفًا ، وفرش تحت المنظرة المذكورة بالرمل الأصفر ، ثم يستدعى صاحب الباب من دار الوزارة ، ووالى القاهرة ماض وعائد لحفظ ذلك اليوم من الازدحام على نظر الخليفة ، فيكون بروز صاحب الباب من الركن المخلق هو وقت استدعاء القاضى ومن معه من مكان وقوفهم ، فيقربون من المنظرة ويترجلون قبل الوصول إليها بخطوات ، فيجتمعون تحت المنظرة دون الساعة الزمانية بسمت وتشوق لانتظار الخليفة ، فتفتح إحدى الطاقات فيظهر منها وجهه وما عليه من المنديل ، وعلى رأسه عدة من الأستاذين المحنكين وغيرهم من الخواص منهم ، ويفتح بعض الأستاذين طاقة ويخرج منها رأسه ويده اليمنى فى كمه ويشير به قائلاً : أمير المؤمنين يرد عليكم السلام ، فيسلم بقاضى القضاة أولاً بنعوته وبصاحب الباب بعده كذلك ، وبالجماعة الباقية جملة جملة من غير تعيين أحد ، فيستفتح قراءة الحضرة بالقراءة ويكونون قيامًا فى الصدر ، وجوههم للحاضرين وظهورهم إلى حائط المنظرة ، فيقدم خطيب الجامع الأنور المعروف بجامع الحاكم ، فيخطب كما يخطب فوق المنبر إلى أن يصل إلى ذكر النبى

صلى الله عليه وسلم ، فيقول : وإن هذا مولده إلى ما منّ الله به على ملة الإسلام من رسالته ثم يختم كلامه بالدعاء للخليفة ثم يؤخر ، ويقدم خطيب الجامع الأزهر فيخطب كذلك ثم خطيب الجامع الأقمر ، والقراء فى خلال خطابة الخطباء يقرؤن ، فاذا انتهت خطابة الخطباء ، أخرج الأستاذ رأسه ويده فى كمه من طاقته ورد على الجماعة السلام ثم تغلق الطاقتان فتنفض الناس ، ويجرى أمر الموالد الخمسة الباقية على هذا النظام إلى حين فراغها على عدتها من غير زيادة ولانقص " .

والموالد الخمسة الأخرى التى أشار إليها المقريزى هى : مولد الإمام الحسين (٥ربيع الأول) ومولد فاطمة الزهراء (٢٠جمادى الآخرة) ومولد الإمام على (١٣رجب) ومولد الإمام الحسن (١٥رمضان) ثم مولد الإمام الحاضر .

فى عصر الدولة الأيوبية ، أبطلت كل مظاهر الاحتفالات الدينية ، فقد كان السلطان صلاح الدين يوسف يهدف إلى توطيد أركان دولته ، لمواجهة ما يتهددها من أخطار خارجية ، واقتلاع المذهب الشيعى ، بمحو كافة الظواهر الاجتماعية التى ميزت العصر الفاطمى ..

وفى أوائل عصر سلاطين المماليك ، إتخذ الاحتفال بالمولد النبوى من العظمة والإبهار ، ما يتناسب مع ما شهده المجتمع المصرى من رفاهية ، وكان السلاطين حريصين على مشاركة رعاياهم الاحتفال بهذه المناسبة .. ويروى " السخاوى " ما شهده فى عهد الظاهر برقوق ، عندما حضر الاحتفال الرسمى بالقلعة ، فيقول : " .. فرأيت ما هالنى ، وأظن ما أنفق فى تلك الليلة على القراء الحاضرين وغيرهم نحو عشرة آلاف مثقال من الذهب العين ، ما بين خلع ومطعوم ومشروب وغير ذلك ، بحيث لم ينزل واحد منهم إلا بنحو عشرين خلعة من السلطان والأمراء " ...

وتميز عصر السلطان الأشرف قايتباى ، بما لم يسبقه إليه أحد من السلاطين ، حيث أمر بصنع خيمة عظيمة " جاءت من عجائب الدنيا" .. وقد أبدع ابن إياس فى وصفها وتخليد ذكرها ، فيقول فى أخبار ربيع الأول سنة ٩٢٢ ، عصر السلطان الأشرف قانصوه الغورى : "وفى يوم الاثنين حادى عشره ، عمل السلطان المولد الشريف النبوى على العاده ، ونصب الخيمة العظيمة التى صنعها الأشرف قايتباى ، قيل إن مصروفها ستة وثلاثون ألف دينار، وهذه الخيمة كهيئة قاعة وفيها ثلاثة لواوين ، وفى وسطها قبة على أربعة أعمدة عالية ، لم يعمل فى الدنيا قط لها نظير ، وهى من قماش ملون ، وهذه الخيمة لا ينصبها إلا ثلاثمائة

رجل من النواتية ، فنصبها بالحوش ، ونصب الشربدارية فى الحوش أحواض جلد ممتلئة بالماء الحلو ، وعلقوا شوكات بالكيزان الفاخرة ، وزينوا بالأوانى الصينى والطاسات النحاس ، وأوسعوا فى زينة الشرابخانة أكثر من كل سنة ، ثم جلس السلطان فى الخيمة ، وحضر الأتابكى سودون العجمى ، وسائر الأمراء من المقدمين وغيرها ، وحضر القضاة الأربعة وأعيان الناس من المباشرين على العادة ، ثم حضر قراء البلد قاطبة والوعاظ على العادة ، ثم مد السلطان السماط الحافل وأوسع فى أمره ، وكان ذلك اليوم مشهوداً وأبهج مما تقدم من الموالد الماضية " ..

وكان الاحتفال عادة ، يبدأ عقب صلاة الظهر ، وينتهى عند ثلث الليل ، وعندما يستقر السلطان فى مقامه بصدر الخيمة ، وجالسًا إلى يمينه شيخ الإسلام ، وعن يساره قاضى القضاة، ويأخذ الأمراء وأرباب الدولة وكبار العلماء أماكنهم المخصصة ، يبدأ الاحتفال بتلاوة القرآن، فيتعاقب القراء ، وكلما انتهى أحدهم ، أنعم عليه السلطان " بخمسمائة درهم فضة " ثم يتعاقب الخطباء ، ويهب السلطان لكل منهم " صرة فيها أربعمائة درهم فضة ومن كل أمير شقة حرير " .. وبعد صلاة المغرب ، تمد أسمطة الحلوى السكرية مختلف ألوانها و " يتخطفها الفقهاء " للتوسعة على أبنائهم ، حتى إذا انتهى الطعام ، يبدأ المنشدون فى مدح الرسول وآل بيته ، ثم يتوافد الخليفة والقضاة والأمراء والأجناد ، طائفة بعد أخرى ، فيقبلوا الأرض بين يدى السلطان ، فينعم عليهم جميعًا بالخلع و " يجبر خاطرهم " بالمنح ، أما السماع فيبدأ من ثلث الليل ويستمر حتى الفجر ، فتأتى طوائف الفقراء والدراويش ومعهم رئيس المنشدين ورئيس المشببين ويستمرون فى الرقص ، والسلطان جالس و " يده تملأ من الذهب ويفرغ لمن له رزق فيه ، والخازندار يأتيه بكيس بعد كيس ، حتى قيل أنه فرق فى الفقراء والمشايخ الصوفية والزوايا فى تلك الليلة أكثر من أربعة آلاف دينار " .. وفى صباح يوم المولد ، يوزع السلطان كميات من القمح على الزوايا والربط .. ويترقب عامة الناس الاحتفال بالمولد النبوى " فيعملون الولائم لذلك ، ويزيدون فى العبرات ويعتنون بقراءة مولده الكريم . كذلك اعتاد كثير من الناس إحياء الذكرى الكريمة فى منازلهم ، وتطرف بعضهم فى الاحتفال ، فأتوا بالمغانى وآلات الطرب وتسابقوا فى اللعب بالدف والشبابه ، ويصرح القوالون بالقصائد والمدائح النبوية ، فاذا ما انتهى الإنشاد ، تقام حلقات الذكر ، على حين تطل النساء من المشربيات وأسطح المنازل لمشاهدة وقائع الاحتفالات ، كذلك كانت تقام داخل البيوت ،

احتفالات نسائية بهذه المناسبة ، حيث تلتف النساء حول إحدى الواعظات أو المتفقهات فى الدين لسماع حديثها .

ثم تبدلت الأحوال فى عصر مصر العثمانية ، وتواضع الاحتفال بالمولد النبوى ، فيتحسر ابن إياس على ما كان من بهجة الأيام السالفة ، فيقول عن أحداث سنة ٩٢٣ : "وفى يوم الجمعة حادى عشر ربيع الأول ، كانت ليلة المولد النبوى ، فلم يشعر به أحد من الناس ، وبطل ما كان يعمل فى ليلة المولد من اجتماع القضاة الأربعة والأمراء بالحوش السلطانى ، والأسمطة التى كانت تعمل فى ذلك اليوم ، وما كان يحصل للمقرئين من الشقق والإنعام ، فبطل ذلك جميعه ، وأشيع أن ابن عثمان لما طلع إلى القلعة وعرض الحواصل التى بها ، فرأى خيمة المولد فأباعها للمغاربة بأربعمائة دينار ، فقطعوها قطعًا وأباعوها للناس ستائر وسفر ، وكانت هذه الخيمة من جملة عجائب الدنيا ، لم يعمل فى الدنيا مثلها قط ... وكانت كهيئة القاعة ولها أربعة لواوين وفوقهم قبة بقمرتان والكل من قماش ، وكان فيها تقاصيص عجيبة، وصنايع غريبة ... وكانت من جملة شعائر المملكة فاتباعت بأبخس الأثمان ، ولم يعرف ابن عثمان قيمتها ، وفقدتها الملوك من بعده ، فحصل منه الضرر الشامل ، وهذا من جملة مساوئه التى فعلها بمصر " !

وفى أحداث ربيع الأول سنة ٩٢٤ هـ ، يقول المؤرخ ابن إياس :

" .. وفى يوم الثلاثاء حادى عشر ربيع الأول ، كان ليلة المولد النبوى ، فصنع له ملك الأمراء (خاير بك) مولداً لم يشعر به أحد من الناس ، فقيل حضر عنده عشرة جوق من القراء والوعاظ وبعض فقهاء ، فرسم لكل جوقه من هؤلاء بأشرفين فضجوا من ذلك ... فرسم لكل جوقة بأربعة أشرفية لاغير ، وقيل أن ملك الأمراء أخلع على الوعاظ فى ذلك اليوم كوامل بسمور ثم استردهم منهم بعد ذلك وأعطاهم مبلغًا يسيراً ، ثم بعد العصر ، مدَّ سماطًا فى المقعد الذى بالحوش ، ليس بكبير أمر ، تخاطفته العثمانية على لمح البصر ، وبات أغلب الفقهاء بلا عشاء ! ..

وأين الحسام من المنجلى ! .. بالنسبة لما كان يعمل فى مولد السلاطين الماضية من الأسمطة الحافلة والشقق والحرير التى كانت تدخل على جوق القراء والوعاظ ، ولاسيما ما كان يعمل فى موالد السلطان الغورى ، فكان يصرف على سماط المولد فوق عشرة آلاف دينار ، وكان يحضر عنده فى تلك الخيمة العظيمة ، التى لم بقى يسمح الزمان بمثلها أبداً ، القضاة

الأربعة ، ومن الأمراء المقدمين أربعة وعشرون أميراً مقدم ألف ، غير بقية الأمراء والعسكر وهم بالشاش والقماش ، فأين ذلك النظام العظيم .. كيف ذهبت أوقاته ؟ فيا أسفى على تلك الأيام ، كأنها كانت منامات " !!

ويرحل بنا المؤرخ العظيم " عبد الرحمن الجبرتى " إلى زمن الحملة الفرنسية ، يوم تقلد الشيخ خليل البكرى نقابة الأشراف ، فى يوم الجمعه الخامس من ربيع الأول لسنة ١٢١٣ هـ ، وفيه " سأل صارى عسكر عن المولد النبوى ولماذا لم يعملوه كعادتهم ، فاعتذر الشيخ البكرى بتعطيل الأمور وتوقف الأحوال فلم يقبل وقال لابد من ذلك ، وأعطى له ثلثمائة ريال فرنساوية معاونة ، وأمر بتعليق تعاليق وأحبال وقناديل واجتمع الفرنساوية يوم المولد ولعبوا ميادينهم وضربوا طبولهم ودبادبهم ، وأرسل الطبلخانة الكبيرة إلى بيت الشيخ البكرى ، واستمروا يضربونها بطول النهار والليل بالبركة تحت داره ، وهى عبارة عن طبلات كبار مثل طبلات النوبة التركية وعدة آلات ومزامير مختلفة الأصوات مطربة ، وعملوا فى الليل حراقة نفوط مختلفة وسواريخ تصعد فى الهواء " .

وواقع الأمر أن حرص نابليون على إظهار احترامه لعقيدة المصريين وشعائرهم وتقاليدهم ، كان جزءاً من " التوظيف السياسى " للعنصر الدينى من أجل استمالة المصريين ، فعقب هذا الاحتفال بيومين ، كتب بونارت إلى الجنرال مارمو يطلب منه زيارة الشيخ البكرى بمناسبة الاحتفال بالمولد النبوى ، وأشار إلى أنه يجتمع برؤساء الدين فى القاهرة ، كما أرسل إلى الجنرال كليبر بالاسكندرية نسخة من Courrier de L`Egypte العدد الأول ، الذى يحوى مقالاً عن الاحتفال بالمولد ، ليقوم بترجمته وطبعه .

وفى يوم الثلاثاء الحادى عشر من ربيع الأول سنة ١٢١٤هـ ، يقول الجبرتى عن احتفال ذلك اليوم :

" عمل المولد النبوى بالأزبكية ، ودعا الشيخ خليل البكرى - سارى عسكر الكبير - مع جماعة من أعيانهم وتعشوا عنده ، وضربوا ببركة الأزبكية مدافع وعملوا حراقة وسواريخ ونادوا فى ذلك اليوم بالزينة وفتح الأسواق والدكاكين ليلا وإسراج القناديل واصطناع مهرجان".

ثم طلب بونابرت من الحكام الفرنسيين للمديريات و توزيع منشورات باللغة العربية على الأهالى ، لإخبارهم بالاحتفال العظيم الذى أقيم بالقاهرة " وقد استمع القائد العام لقصة المولد، ثم أقبل على الصلاة يحف به كبار المشايخ "!

ولم يذكر الجبرتى شيئًا عن احتفال سنة ١٢١٥ ، إلا أن جريدة " الكوريـيه" تشير فى عددها " اغسطس ١٨٠٠ " إلى مناسبة المولد النبوى وتقول : "مهما تكن آراؤنا الدينية ، فالواجب يقتضى بأن نعتبر محمداً رجلاً يسمو كثيراً فوق بقية الرجال الذين عاشوا عصره ، ويمتاز عليهم ، وهو بفضل عبقريته ومعارفه وشجاعته أهل لإعجاب الأجيال التالية " .. كما عرضت الجريدة جانبًا من نشأة الرسول ، وموجزاً لأصول العقيدة الإسلامية .

لقد أدرك الفرنسيون ما للعقيدة من أثر فى التنظيم الاجتماعى فى المجتمع المصرى ، فأكثروا من استخدام الآيات القرآنية ، وحرصوا على إحياء الشعائر والاحتفالات الدينية والأعياد القومية ، بل انهم شجعوا عقيدة الشعب فى الكرامات ، فشاركوا فى الاحتفال بموالد بعض الأولياء !

ثم جاء المستشرق البريطانى الشهير " إدوارد لين - E.W.Lane " الذى أبدع فى دراسة ووصف تفاصيل الحياة اليومية المصرية ، فى كتابه " شمائل وعادات المصريون المحدثون " .. على نحو لم يبلغه أحد من المستشرقين ، حتى أنه أتقن لغة الحديث باللهجة المصرية .. وقد وصف لنا الاحتفالات بمولد النبى عام ١٨٣٤ ، فيقول :

" .. تجرى احتفالات المولد فى الحى الجنوبى الغربى من الساحة الرحبة المعروفة ببركة الأزبكية ، التى تتحول فى موسم الفيضانات إلى بحيرة كبيرة .. حيث تنصب خيام وسرادقات للدراويش الذين يجتمعون كل ليلة للاحتفالات وإقامة حلقات الذكر .. ويتجمع الناس فى النهار للاستماع إلى الشعراء والرواة ، ومشاهدة المشعوذين والمهرجين ، وقد أجبرت الغوازى على التخلى عن الرقص ! .. وترى فى بعض الشوارع المجاورة المراجيح ، وباعة المأكولات والحلوى ، وتكتظ المقاهى بالرواد ...

وكانت الليلة الحادية عشرة من الشهر القمر يشع نوراً فى السماء ، فيضفى على الإحتفالات روعة وبهجة ... مررت بشارع سوق البكرى ، لأحضر جانبًا من حلقات الذكر ، كانت الشوارع التى مررت بها محتشدة بالجموع الغفيرة ، ولم أصادف إلا القليل من النساء... وعلقت فى المكان - بسوق البكرى - الذى شهد تجمعًا ضخمًا من الناس " ثريا" رائعة كبيرة تضم نحو ثلاثمائة قنديل .. "

ويمضى إدوارد لين مغرقًا فى وصف أدق تفاصيل حلقات الذكر والإنشاء ، ومواكب الدراويش ، معربًا عن دهشته من احتشاد الأقباط لمشاهدة تلك الحلقات التى استمرت حتى

آذان الفجر .. وفى اليوم التالى ، شاهد عرض " الدوسة " المميز الذى يختص به دراويش السعودية ، فقال :

" توجهت فى اليوم السابق لليلة المولد إلى الأزبكية قبيل الظهر ، فلم أشاهد غير بعض الدراويش والشعراء والمهرجين ، وقد استقطب كل منهم حلقة من المتفرجين ، ثم بدأت جموع الناس تتزايد فى إنتظار إستعراض الدوسة ، الذى يقام كل عام فى مثل هذا اليوم ....قصد شيخ الدراويش السعدية - السيد محمد المنزلاوى - مسجد الحسين ، بعد أن قضى شطراً من الليلة السابقة فى خلوته ، مردداً بعض الصلوات والأدعية الخفية ، وبعد أن أدى صلاة الجمعة، توجه فى موكبه إلى دار الشيخ البكرى ، الذى يرأس جميع طوائف الصوفية فى مصر، وتقع هذه الدار بالجهة الجنوبية لبركة الأزبكية ، وفى طريقه انضمت إلى موكبه ، مجموعات من الدراويش السعدية ، وفدوا من أقسام مختلفة بالعاصمة ، وشيخ السعدية كهل، أشهب اللحية ، وسيم المحيا ، جميل الهيئة ، أبيض الوجه ، وكان يلبس فى هذا اليوم، بنشًا وقاووقًا أبيضين ، وعمامة من الموسلين الزيتى اللون داكن ، تعبر مقدمها منحرفة قطعة من الموسلين الأبيض ، وكان يركب جواداً متوسط الارتفاع والوزن ، وإنى أذكر ذلك ، لسبب يتبينه القارىء الآن ، ودخل الشيخ بركة الأزبكية ، يتقدمه موكب عظيم من الدراويش وأتباعه ..

وفى طريقه من هذا الميدان ، وقف الموكب على مسافة قصيرة من منزل الشيخ البكرى ، حيث انبطح عدد كبير من الدراويش وغيرهم - لم أستطع أن أحصيهم عدا - انبطحوا جنبًا إلى جنب ، متلاصقين بقدر الإمكان ، وأرجلهم ممدوده وأذرعهم تحت جباههم ، كانوا يهمسون على الدوام باسم الله ، ثم جرى إثنا عشر درويشًا ، حفاة أغلبهم ، على ظهور رفقائهم ، وكان بعضهم يضرب الباز ويصيحون الله ! ..

ثم دنا الشيخ ، فتردد حصانه - دقائق معدودة - قبل أن يطأ ظهر أول المنبطحين ، ولكنه خطا أخيراً بالدفع والحث من الخلف ، ثم مشى دون خوف ظاهر ، بخطوة عالية ، على ظهورهم جميعًا ، يقوده شخصان ، وكان أحدهما يطأ الدراويش المنبطحين فوق أرجلهم أحيانًا ، والآخر فوق رؤوسهم ، وهتف المشاهدون فى الحال بصوت ممدود : الله !

ولم يظهر على أحد ممن داسهم الحصان أنه أصيب بسوء ، بل وثب كل منهم واقفًا بعدما مرّ الحصان عليه وتبع الشيخ ، ويقال أن هؤلاء والشيخ أيضًا يستعملون كلمات (أى يرددون اسم

أو أدعية) فى اليوم السابق ، حتى يمكنهم احتمال خطى الحصان دون ضرر ، وإن بعضًا لم يهيأوا كالسابقين ، اجترأوا على الانبطاح ليمر الحصان عليهم ، فلقوا حتفهم ، أو اصيبوا بضرر بالغ ، فى أكثر من مناسبة !

ويعد هذا العمل : كرامة ، أحدثتها قوة غير طبيعية ، منحت لكل شيخ من شيوخ السعدية المتتابعين ... ويقولون أيضًا أن الحيوان دُرِّبَ لهذا الغرض ، ولكن إذا كان الأمر كذلك ، اعتبر هذا من الوقائع المثيرة للدهشة ، إذ أن دوس الحصان الآدميين هو عمل ينفر منه الحيوان بشدة ، كما هو معروف ، وقد رفض شيخ السعدية الحالى عمل الدوسة عدة سنوات، وبعد توسل شديد ، قبل أن يفوض القيام بها إلى شيخ آخر ، نجح فى أدائها بالرغم من أنه كان ضريراً .. !

وقد توفى هذا الشيخ الضرير ، عقب ذلك ، فاستجاب شيخ السعدية إلى التماس دراويشه، وأصبح منذ ذلك الوقت ، يقوم بعمل الدوسة بنفسه دائمًا ..

وبعد أن قام الشيخ الضرير بهذا العمل الفذ ، دون حدوث ما يعكر صفو ذلك اليوم ، ركب إلى صديقه الشيخ البكرى ، ودخل إلى قصره بصحبة بعض الدراويش " !!

وتجدر الإشارة إلى أن الاحتفال بعمل الدوسة ، قد أبطل فى عهد الخديو توفيق كما أشار" أحمد شفيق باشا " فى مذكراته ، الذى حدثنا عن حفلة " الأشاير " و " عملية الدوسة " .. فقال :

" يجتمع فى ذلك اليوم ، أرباب الطرق الصوفية ، بميدان باب الخلق ، ويسير الموكب بأهم شوارع المدينة ، وكانت تضم جماعة من المشعوذين ، منهم من يأكل الزجاج والثعابين ، ومنهم من يضرب شدقه بدبوس ذى رأس غليظ ، فى عنف وقسوة ، بل كان بعضهم يضع حد السيف على بطنه ثم ينام فوقه حتى يعلو عليه شيخهم ، ثم يبل بريقه موضع السيف أو موضع الدبوس ليشفى ، وعندما يصل موكب الأشاير إلى ساحة المولد النبوى أمام صيوان البكرى ، يقرأ رجال كل طريقة الفاتحة ، وأمامهم شيخهم بحضور ولى الأمر والمدعوين ، وبعد ذلك ينبطح الكثيرون على وجوهم فى صف كبير ، ثم يمر فوقهم شيخ السادة السعدية بحصانه ، يقوده اثنان من اتباعه ، وهم يعتقدون أن سينالهم من جراء ذلك خير كثير ، وكان الناس يروحون عليهم بمراوح يدوية ، أو بملابسهم أثناء انبطاحهم على الأرض فى الحر الشديد ، وقد أبطل الخديو توفيق باشا هذه الحفلات العنيفة المزعجة ، التى كانت خاصة بطريقة السادة السعدية ، المنتسبين إلى سعد الدين الجباثى "

ومنذ عهد الأسرة العلوية ، أصبح عبء احتفالات مولد النبى مسئولية نقيب الأشراف ، الذى يتلقى دعمًا من الخزانة العامة للمساهمة فى النفقات ، كذلك محافظة القاهرة وإدارتها تخصص أطنانًا هائلة من الأرز واللحوم والزبد والشاى والخشب ، أيضا إدارة الممتلكات الخديوية (الخاصة الخديوية) كانت ترسل أطنانًا من السكر ، وأدوات المطابخ .

وأصبح بيت السادة البكرية ، وساحته الشهيرة بالأزبكية ، يشرف برعاية الاحتفال الرسمى للمولد ، وغدا بديلاً لاحتفالات الحوش السلطانى بالقلعة ، وعنهم يقول على باشا مبارك فى خططه : " وللسادة البكرية فى ظل الدولة المحمدية العلوية من العناية ما يتحدث بزائد شرفه الركبان ، ويفتخر به هذا الزمان على غيره من الأزمان ، لاسيما فى عهد الحضرة الفخيمية الخديوية وعصر الطلعة المهيبة التوفيقية ، فانه وصل فيها الاحتفال بأمر المولد النبوى الشريف إلى حده الأعلى ... وذلك أنه فى العشرة الأخيرة من شهر صفر الخير من كل عام ، تصنع بمنزلهم مأدبة فاخرة ، يدعى إليها كافة مشايخ الطرق ، والأضرحة ، والتكايا ، والوجوه والأعيان والذوات ، فتدخل أرباب الطرق بالطبول والبيارق ، رافعى أصواتهم بالذكر والصلاة على رسول الله ، ثم يعين لكل واحد من السادة الصوفية ما يخصه من ليالى المولد الشريف لإحيائه ويضيف قائلاً :

" وفى الحادى عشر من الشهر المذكور - الذى هو ختام المولد الشريف - تزدان خيمة السيد البكرى بتشريف الجناب الخديوى ، ويهدى السيد بفرجيه سمور من الحكومة السنية ... وفى ليلة الثانى عشر منه ، يقرأ المولد الشريف النبوى فى خيمة السيد باحتفال فائق يحضره الجناب الخديوى والنظار والعلماء والأعيان والذوات والوجوه " .

وكان مما يزيد مشهد الساحة رونقًا وبهاءً ، ما قامت به الخاصة السنية من تشييد لسرادق ضخم يتحلى بأبهى زينة أطلق عليه " خيمة الحضرة الفخيمية الخديوية " .. بجانب خيمة السيد البكرى التى عينتها له الحكومة .

ويشيد على باشا مبارك بليالى خيمة السادة البكرية ، فيقول : " .. لياليها جميع تلك المده ، تكون زاهية بالتلاوة والدلائل والأذكار ، باهية من أضواء الشموع بسواطع الأنوار زاهرة أيامها بالخيرات وأنواع المبرات فى إطعام الطعام وبذل الإكرام لعموم الزائرين وجميع الوافدين من أى جنس كان ، وكذا تكون خيام الطرق أواخر ليالى المولد الشريف ، ولهم على السيد عادات يؤديها إليهم سنويًا للاستعانة على ذلك "

فى منتصف شهر صفر ، تتحدد مدة الاحتفال بالمولد ، فى اجتماع بمنزل قاضى القاهره ، بحضور مشايخ الطرق ، يعقب ذلك طلب نقيب الأشراف من محافظ العاصمة أن يرسل له "فرمان" المولد النبوى ، الذى يعطى الإذن بالاحتفال فى المدة المقررة . وكان نقيب الأشراف يتولى إبلاغ نوابه فى جميع المديريات ، وتعليماته باعلان ذلك بين الناس .

وفى ٢٥ صفر ، كانت الطرق الصوفية تجتمع بالقرب من " باب الخلق" حاملين بنودهم وراياتهم ، متوجهين فى موكب إلى قصر الشيخ البكرى - نقيب الأشراف - بالأزبكية ، حيث ينتظرهم مشايخ الطرق والتكايا وسدنة الأضرحة ، وبعض الأمراء والأعيان ، الذين حضروا " وليمة فاخرة " تلبية لدعوة الشيخ البكرى ، ثم يتلى فرمان المولد ، ويحدد لكل طريقة يوم لإقامة الذكر بقصر البكرى أو للمرور فى موكب أمام القصر .

وفى اليوم التالى ، يجتمع قراء القرآن بقصر البكرى ، ويتلى أيضًا " حزب البكرى " وقصة " المولد النبوى " .. وفى المساء ، يدعى الأمراء والعلماء والوزراء وكبار رجال الدولة ، لحضور استقبال مشايخ الطرق ، والاستماع إلى إنشاد قصة المولد ، وفى هذا الحفل ، كان نقيب الأشراف يمنح رؤساء الطرق : عباءة الشرف ، من الصوف الفاخر ، عدا مشايخ " الرفاعية " و " السعدية " فيتسلمون عباءات خاصه من الجوخ !

وخلال تلك المراسم ، يستمر توافد مواكب الطرق ، وحلقات الذكر ، داخل وخارج قصر البكرى ، كما كانت تنصب السرادقات والخيام لهذا الغرض ، فى ساحة الأزبكية .

وعن الاحتفال بالمولد النبوى فى ذلك العصر ، يقول أحمد شفيق باشا :

" يبدأ المولد فى ٢٥ صفر ، بأن يجتمع رجال الطرق الصوفية بميدان باب الخلق ، وكل طريقة معها أعلامها ، وعند تكاملها تسير فى موكب ، ينشد رجالها ترانيم ، كل طريقة بنغمتها ، مع دق الدفوف وقرع البازة ، إلى أن يصلوا مركز مشيخة الطرق الصوفية ، حيث يستقبلهم السيد البكرى ، فتقرأ الفاتحة والصلوات والتسليمات ، ثم يجتمع مشايخ الطرق لديه فيعلن افتتاح المولد النبوى الشريف ، ثم ينصرفون . وفى عصر يوم ٢٨ صفر ، يجتمع القراء لقراءة آى الذكر الحكيم ، وفى مسائه يدعى الأمراء والعلماء وكبار الموظفين والأعيان لسماع قصة المولد الشريف ، ثم يأتى أرباب الطرق المختلفة ، جماعات ، كل أهل طريقة بدورهم ، وأمامهم حاملوا الفوانيس الخاصة بهم - وهى فوانيس كبيرة مغطاة بقماش أبيض

رقيق بدل الزجاج - فيستقبلها السيد البكرى ، وبعد قراءة الفاتحة والصلوات ، والتسليمات ، يقام مجلس الذكر ، وينشدهم الشيخ الشنتورى ، ويستمر إحياء الليالى فى سراى السادة البكرية لغاية يوم ٤ ربيع الأول " .

الليلة الختامية

فى ليلة ١٢ من ربيع الأول ؛ ختام ليالى المولد أو " الليلة الكبيرة " كان الخديو يتصدر الاحتفال فى سرادق نقيب الأشراف ، فى حضور حاشيته وأعضاء الحكومة والأمراء وأعيان الدولة ، وفى مذكراته عن هذا " الحفل الرسمى " يقول " أحمد شفيق باشا " :

" .. وفى المساء ، تمد الموائد فى سرادق البكرى للمدعوين ، وبعد صلاة العشاء ، يشرف الصيوان - الجناب الخديوى - لسماع قصة المولد النبوى الشريف ، وفى ختام قراءة القصة ، يوزع الحلوى وشراب الليمون على الحاضرين ، وينصرف بعد ذلك سموه إلى سرادقه ، حيث يبدأ بالألعاب النارية .

ويزدحم الناس فى هذه الليلة ازدحامًا لا مثيل له لمشاهدة هذه الأذكار وسماع أناشيدها ، ورؤية النيازك .. وينتهز الشباب فرصة الزحام ، فيكثر الغزل بين الفتيات والفتيان ، وتمشى رسائل - اللب والفستق - ونحوها بين العربات التى تحمل الجنسين ، مما يجعل من الليلة مهرجانًا : حظ الفتنة فيه أكبر من حظ الدين ، إن كان للدين حظ فى أمثال هذه الحفلات " !!

فى عهد الملك فؤاد ، انتقلت ساحة الاحتفال بالمولد النبوى إلى العباسية ، حيث تولت وزارة الأوقاف ، وبعض الهيئات الحكومية ، إقامة سرادقات خاصة ، طوال فترة الاحتفالات ، يرتادها الزائرون من كل صوب ، يستمتعون بأطايب الطعام والمشروبات ، وبسماع أشهر المقرئين والخطباء والمنشدين .

أما فى عهد الملك فاروق ، وبالتحديد عام ١٩٤٥ ، فكان الاحتفال بالمولد النبوى فى صحراء قايتباى ، أو ما يطلق عليها " ترب الغفير " ويصف شاهد عيان هو " حسن السندوبى" وقائع الاحتفال ، فيقول :

" .. قبيل الظهر بساعة ، بينما هذا الجمع الحاشد فى الانتظار ، إذ تعالت هتافات الجماهير المحتشدة على قوارع الطرق المؤدية إلى ساحة المولد ، بحياة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول ، وحياة مصر الخالدة ، فكان ذلك إيذانًا بوصول الموكب الملكى الفخم ، وقد أقبل

جلالته بوجهه المشرق على هذه الجموع ، مشيراً بيده الكريمة إشارة التحية والسلام .. وبعد أن صدحت الموسيقى بالسلام الملكى ، وقف فاروق وحاشيته يستعرض بعض فرق الجيش .

ثم بارح جلالته السرادق الملكى ، قاصداً تشريف سرادق السادة البكرية وما هو أن أشرف عليه حتى نهض حضرة صاحب السماحة السيد أحمد البكرى شيخ مشايخ الطرق الصوفية ، وحوله جمع من كبار المشايخ ، لإستقبال جلالته بما يليق بمقامه الكريم ، ولما شرف جلالته - حفظه الله - صدر المجلس الخاص ، قام حضرة صاحب الفضيلة السيد محمد الببلاوى نقيب الأشراف وأخذ فى إلقاء قصة المولد الشريف " .

التصوف

إن الرغبة فى التقرب إلى الله - تبارك وتعالى - هى محصلة إجتهاد وإخلاص العبد نفسه، وهى القوة المحركة للمتصوفة أو الدراويش ، الذين يعتبرون " المظهر الباطنى " للإسلام، بالرغم من أنه لارهبانية فى الإسلام أو قديسين أو اتجاه لفكر باطنى !

فان حب " الله - المطلق " هو أمر توارثته الأديان ، والشرق - على وجه الخصوص - كانت له ذخيرته التاريخية مع مدارس الزهد والتفكر والروحانية قبل فجر الإسلام .

ويمكننا أن نلمس تأثيرات معينة من تعاليم المسيحية والبوذية ، وفكر فلسفى هندى كالبراهمية ، فى الحركة الباطنية فى التاريخ الإسلامى ، على الرغم من الرؤية السائدة بأن الصوفية - فى المبدأ - حركة أصيلة وهامة تطورت داخل الفكر الإسلامى ، وحتى عهد قريب، كان غالبية المسلمون ينضوون تحت أولوية الطرق الصوفية ، أما الآن فان الصوفية قد تدهورت واختفت تمامًا من بعض البلاد !

أما فى مصر ، فان شعبها ما زال يضم ملايين المناصرين للصوفية ، ويعلنون عن أنفسهم بانتظام وفى جماعات ضخمة فى مواسم موالد الأولياء ! وفى مسيرة الفكر الإسلامى . كانت هناك اتجاهات لإيجاد صلة ما بين التصوف والإسلام ، على أساس ما ورد فى القرآن الكريم وفى الحديث الشريف ، من نصوص تدعو إلى البر والإحسان والتقوى والورع والتحذير من الانغماس فى متاع الدنيا .

وهناك اتجاهات لاترى أدنى صلة تربط التصوف بالإسلام ، باعتبار أن الإسلام منهج إلهى متكامل للحياة ، أما التصوف فهو إفراز بشرى أحاطت به مؤثرات متباينة .

ويذهب بعض العلماء إلى أن الباطنية هى " فعل أكثر منها نظرية " .. ومهما كان لدينا من " نظريات " أو " شروح نظرية " فان ذلك لايؤدى بالضرورة إلى " خبرة باطنية " ! .. فالذى يتخذ من الرسول قدوة : هو من يتبع أفعاله ويلتزم تعاليمه وليس " ذلك الذى يملأ الأوراق بالحبر " كما قال الشاعر الفارسى " چامى " .. الذى يضيف : "إن القراءة عن الخمر لاتفضى إلى السُكر " !

وكان كثير من الصوفية يحظون بمعرفة عميقة عن الشريعة الإسلامية ، مثلما كان سائداً حتى نهاية القرن التاسع عشر ، حيث كان كثير من العلماء وشيوخ الأزهر ينتسبون إلى طرق صوفية .

وبالنسبة للصوفية يأتى الحب قبل الشريعة ، وتقدم الروح على الكلمة ، فالنصوص والواجبات الدينية تعرف بـ " علم الظاهر " والتفسيرات والمعانى الخفية تعرف بـ " علم الباطن".. و " الحقيقة " هى هدف العلوم التى اصطلح عليها بلفظة " المعرفة " التى يتحصل عليها بالتأمل والتدبر والنورانية .. و " روح المعرفة " و " التوحد" كمعان محددة للتواصل تكون غير قادرة على أن يرمز لها بشكل واف وملائم ، ومن الخطأ الاعتقاد أنها أشياء يمكن نيلها أو الاستحواذ عليها ، فهناك غموض وأسرار تفوق الوصف ، إذ يقول " الحلاج " فى كتابه : بستان المعرفة " الحق حق ، والخلق خلق ، وليس هناك ما يخشى منه " !

ورغمًا عن ذلك ، فقد أخرجت نظريات عديدة لعلم الباطن ، وضعها الرواد القدامى ، لكن ما يحدث بالفعل ، فى عصرنا الحالى ، أن كثير من شيوخ السجادة ، المفترض أنهم القائمين على تطبيق هذا العلم ، لا يأخذون إلا بأقل القليل من هذه النظريات !

والمذهب الباطنى - فى مستواه الشعبى - هو الأقرب إلى المفاهيم الدينية فى مصر الفرعونية ، فيشير " بليكر " فى كتابه " المهرجانات الدينية " إلى هذا المعنى ، فيقول :

" .. خلافًا للفكر اللاهوتى التأملى ، الذى استنبطته وطورته الديانات الكبرى التوحيدية ، فان الديانة المصرية كانت أمراً من أمور الحكمة ، التى مكنت الإنسان من أن يفهم منهج النظام الإلهى فى الحياة . كى ينسجم معها من أجل تنمية خلاص الفرد والمجتمع ، فلم يكن الكهنة يفكرون بشكل منطقى ، بل كانوا سدنة الدين والاعتقادات التى بلغت حداً هائلاً من التعقيد ، ولم يتم صياغتها بشكل أكثر ترابطًا ومنطقية إلا فى عصر متأخر بواسطة الإغريق.

وكانت المهرجانات هى ذروة الطقوس الدينية ، فلم يعلن - الضمير الدينى المصرى القديم- عن نفسه ، بتراكم ثروة كبيرة من الأفكار ، مثلما حدث فى بلاد النهرين ، بل أعلن عن نفسه عن طريق استمالة الفعل العقائدى الذى نما من مفهوم دينى قوى ، فالأساطير نفسها لم تكن لها جوهر قوى ، ولكنها استلهمت من الشعائر والمعتقدات ، وخلافًا لفكر الأديان السماوية ، لم ير المصريون القدماء - هوة - بين الإله والإنسان ، بل إعتبروهما مندمجين ، رغم وضوح

الفارق ، خاصة بعد الموت ، إذ تبرز علاقة معينة نتجت عن إعتقاد راسخ بأن الميت يحصل على شيء من القوة : التى مكنت الآلهة من أن تنتصر على الموت ، وهو ما يشكل مطلبًا أساسيًا فى عقيدة الموتى ، لذا يمكننا القول أو الإدعاء - البعيد عن البساطة - بأن علم الباطن الشعبى المعاصر ، والاعتقاد فى الأولياء والقديسين : هما استمرار مباشر لعقائد مصر القديمة فى العصر النيوليتى أو العصر الحجرى الحديث "

وقد زاول أئمة الصوفية نشاطهم على هامش مجتمعاتهم ، دون اهتمام بالناس والأحداث ، وتركز جل اهتمامهم فقط على التفكر فى الله ، وظل الزهد والتقشف عنصراً أساسيًا من عناصر التصوف ، بالنظر إلى أن الدنيا ما هى إلا محطة مؤقتة على الطريق ، فكان " الحسن البصرى " الذى توفى عام ٧٢٨ م مثالاً على ذلك النوع من التصوف ، ولنتأمل أحد أقواله الشهيرة :

" كن مع الدنيا كأنك لم تكن بها مطلقًا ، وكن مع الآخرة ، كأنك لن تدعها أبداً " .. وقد تختلف فكرة " الطُهر " و " العشق الإلهى " من خلال " رابعة العدوية " التى كانت تعلم مريديها " حب الله" من أجل ذاته فقط ، لا خوفًا من ناره ولاطمعًا فى جنته .

وقد شعر " أبوزيد البسطامى " .. توفى عام ٨٧٤ م ، أنه شديد القرب من الله - درجة النشوة والجذل ، فكان يهتف بقوة قائلاً : " سبحانى " ! تمامًا مثلما صرخ الحلاج قائلاً : "أنا الحق ! .. " ومن ثم نفذ فيه حكم الإعدام بتهمة الهرطقة والزندقة !

وأسهم " الترمزى " بفكرة : "مراتب الأولياء " التى يترأسها " القطب" أو " الغوث" .. ثم زاد عدد الأقطاب فى مراحل متأخرة ، وكان " الجنيد " يقارن بأغلب متصوفة عصره (القرن العاشر الميلادى) كمفكر متزن ، وتنسب إليه معظم منظومة الطقوس الأولية للطرق الصوفية الحالية ، مؤكداً على " التطهر الدائم " و " والمجاهدة العقلية " .. ويقول :

" إننا لا نأخذ الصوفية من الحديث والكلام .. بل من معاناة الجوع والتخلى عن الدنيا ، والانقطاع عن الأشياء التى اعتدنا عليها وأحببناها " كما أكد على حالة " الصحو " فى مقابل حالة " السكر " التى مارسها بايزيد البسطامى .

أما الشيخ الأكبر " ابن عربى " .. توفى عام ١٢٤٠م ، والذى دون كل المأثورات النظرية لعلم التصوف فى مجلدات ضخمة ، فيرجع إليه الفضل فى ابتكار فكرة " وحدة الوجود ".. والتى يذهب فيها حداً من الشطط ، زاعمًا أن كل شيء هو الله ، معتقداً أن " جوهر الإله"

عبارة عن : محيط أخضر لايحده شيء ، تنبثق منه أشكال سرعان ما تتلاشى كالموج ، ثم تسقط وتختفى فى أعماق سحيقة ، ولُب منظومة ابن عربى ، هو تبجيل وتوقير النبى - صلى الله عليه وسلم - بوصفه إنسانًا كاملاً ، والوسيط الذى عرف من خلاله الإله ، معلنًا عن صفاته ، وقد استلهم ابن عربى ، عناصر هذه الأفكار من مذهب " التفكير الأفلاطونى الحديث " وهو مذهب متطور عن الأفلاطونية ، يتصور أصحابه : العالم فيضًا من الذات الإلهية ، يستطيع الإنسان أن يتحد معها من خلال الانجذاب الصوفى !

كان كل ذلك معداً لكى ترثه الطرق الصوفية ، عند بداية نشأتها فى القرن الثانى عشر الميلادى ، تلك النشأة التى ما زال يحيطها الغموض ! .. فى وقت كانت جماعات الصوفية فى " الرباطات " و " الخانقاوات" تحتوى أفراداً كلٌ يسلك طريقه بذاته ، وقد تمحور تطور الطرق - بصفة عامة - حول شخصية رجل واحد .. يبث تلاميذه وأتباعه تعاليمه وأسلوبه ، هذه التعاليم والتوجيهات تظل مرتبطة باسمه عقب وفاته ، يلقنها شيوخ اعتبروا أنفسهم ورثته من الناحية الروحية ، وأصبحت التجربة الصوفية حبيسة هذا الإطار ، ولكن يمكننا القول بأنه فى ظل المتغيرات فى النظم السياسية والاجتماعية الحديثة .. أن العصر الذهبى للصوفية قد انتهى على الأقل من الناحية الفكرية .. !

والطرق الصوفية الرئيسية التى نشأت بمصر ، ولاتزال نشطة بها ، مثل : الأحمدية ، البرهامية ، الشاذلية .. أو التى نشأت بالعراق مثل الرفاعية والقادرية ، نجد أن مؤسسى هذه الطرق قد ارتحلوا أصلاً من بلاد المغرب والأندلس - بصفة خاصة - أما الطريقة " الخلوتية" التى حظيت بانتشار هائل ، واختلفت فى كثير من الجوانب عن الطرق الأخرى ، فقد نشأت فى تركيا ، شأنها شأن " المولوية " والتى هى و " البكتاشية " قد انتهتا بالفعل فى مصر .

وعلى المستوى الشعبى ، فان الطريقة الأكثر عدداً ونشاطًا هى " الطريقة الرفاعية " وقد عاش مؤسسها " أحمد الرفاعى " فيما بين عامى (١١١٠ م و ١١٨٢ م) ، فى الأهوار المتاخمة لمدينة البصرة ، جنوب العراق ، التى لم يغادرها إلا مرة واحدة عندما قصد إلى الحج ، ووجدت الطريقة سبيلها إلى مصر ، من خلال بعض أفراد أسرته ، وبعض أنصارها ، ولم يكن الرفاعى مفكراً ، وإنما اعتمدت شهرته على شخصيته الفذة ، فاستطاع أن يجمع إليه عدد من الاتباع ، إبان عزلته فى قرية " أم عبيده " وتنتسب سلالته إلى النبى ، من خلال والديه ، حيث تضرب شجرة العائلة بجذورها حتى الحسن والحسين سبطا رسول الله ، ولعل هذا سبب تلقيبه بـ " أبا العلمين " .. وقد اشتهرت هذه الطريقة بسبب قيام بعض من أفرادها المتميزين

بأعمال غريبة ، تثير الدهشة ، مثل السير على الفحم المشتعل وإدخال قطع من الحديد فى أجزاء مختلفة من الجسم ، بالإضافة - طبقًا لما يزعمون - أن لهم قوة تأثير خاصة على الثعابين والعقارب ! .. ولذا يطلق فى مصر على حواة الثعابين : الرفاعية !

وطبقًا لما يتصف به قادة الطرق الصوفية ، من الحذر والتحفظ ، ومحاولة التمسك بالمبادىء الأصلية .. يؤكد شيخ السجادة الرفاعية على أن هذا هراء لاطائل منه ، فقد " كانت هناك معجزات للسيد أحمد الرفاعى ، الذى ناصبته السلطات العداء ، فوضعت إلى جواره ثعبانًا ضخمًا بينما كان يصلى ، فلم يمسسه بسوء وما كان ينبغى له ، فتلك كانت معجزة شخصية وخاصة ، لم تنتقل إلى اتباعه وخلفائه "!

ويتسم الرفاعية بانتظامهم فى جماعات ، تتمتع بقدر من الاستقلالية تتيح لهم ظهوراً جليًا فى الموالد ، ومن السهل التعرف عليهم ، فهم أتباع الطريقة الوحيدة التى اتخذت من اللون الأسود شعاراً لها !

أما " شيخ العرب " السيد أحمد البدوى ، فقد ولد بمدينة " فاس " بالمغرب عام ١١٩٩ م، ورحل إلى الجزيرة العربية صغيراً ، إلى أن أصبح ماهراً بالفروسية ، ثم رحل إلى أهوار البصره، ويتتلمذ على يد الرفاعى ، إلى أن يرحل إلى مصر عام ١٢٣٤م ، ويستقر بمدينة "طنطا" وهناك يمارس تدريبًا مكثفًا على الزهد ، وكانت له كرامات اجتذبت إليه أعداداً هائلة من المريدين والأتباع ، فأسس طريقته الخاصة به ، وتوفى عام ١٢٧٨ م .

وقد انقسمت " الأحمدية " إلى عشرات الطرق ، إلا أنها احتفظت بسمات مشتركة ، أبرزها اتخاذ العمائم والشارات ذات اللون الأحمر .

أما الشيخ " ابراهيم الدسوقى " ١٢٤٦ - ١٢٨٨ ، فيتميز بأنه الوحيد من بين مؤسسى الطرق الصوفية الكبرى بأنه مصرى المولد ، لكن لايعرف الكثير عن تفاصيل حياته ، سوى ما أورده الشعرانى ، عن معرفته للغات الفارسية والسريانية والعبرية واللغات الزنجية ، ولغات الطير والحيوان ، وقد صنف لأتباعه مؤلفًا يتضمن تعاليمه ، وتوجيهاته إلى مريديه ، والأخضر هو اللون المميز لطريقته ..

وقد شهدت مصر سنوات التكوين الأول للطريقة الشاذلية ، وكان أبو الحسن الشاذلى ، الذى منح الطريقة اسمه ، ملتزما التقاليد الصوفية لأبو مدين التلمسانى ، الذى ولد بضواحى

مدينة أشبيلية بالأندلس ، وتوفى عام ١١٩٨ م ، ثم فى مرحلة تالية ، تلقى الشاذلى التعاليم الرفاعية، وكان قد زار مقرها بالأهوار عام ١٢٢٠ م ، ثم استقر حينًا بالاسكندرية ، وتوفى عام ١٢٥٨ م وهو فى طريقه إلى مكة ، بوادى " حميثره " .. وقد تبلورت تعاليمه على يد تلميذه " أبى العباس المرسى " .. ثم طورها " ابن عطاء الله السكندرى " فى مأثورات وتعبيرات لطيفة ، عكست الأفكار الشاذلية ، فى كتابه الشهير " الحكم " ..

وبصفة عامه ، فان الحركة الصوفية فى مصر ، اتسمت بالاعتدال ، وكانت بمنأى عن الغلو واعتناق الفلسفات الملحدة ، ويشير د . التفتازانى إلى هذا المعنى فيقول :" لقد لاحظنا بعد استقراء طويل لأقوال ومذاهب الصوفية فى مصر ، من القرن الثالث إلى السابع الهجرى ، سواء منهم من كان مصريًا أم وافداً إلى مصر ، أنهم كانوا معتدلين فى تصوفهم ، فلم يكن واحد منهم قائلاً بوحدة الوجود أو الحلول أو الاتحاد ، كما كان تصوفهم بمنأى عن العناصر والأفكار البعيدة عن روح الإسلام " .. ويضيف : " إن صوفية الطرق من المصريين ، يجمعهم طابع خاص هو العناية بالجانب العملى الخلقى من التصوف ، أكثر من العناية بالخوض فى المسائل النظرية الصوفية "

بينما يؤكد د. توفيق الطويل : على أن آفة التصوف هى السلبية والعزلة ، وأنه مع نهاية القرن التاسع الهجرى ، إنساق التصوف تحت تأثير الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية إلى التدهور والاضمحلال ، ودخله العوام ، واعتنقه الوصوليون والأدعياء .. وأنه " أصبح مطية لأصحاب الأهواء من المفسدين فى الأرض ، وأشد صور هذا الفساد ، التلمذة على الجهال ، بحجة أنهم علماء فى الطريق ، ومما يثير الأسى أن بعض متصوفة عصرنا يفخر بشيخه الأمى ، ويهوى على يده تقبيلاً ، ولا أدرى كيف يستساغ ذلك فى رحاب الإسلام ، الذى يعد طلب العلم فريضة والسعى إليه جهاد ، وأن الكلمات الأولى المنزلة من الكتاب الحق ، كانت أمراً بالقراءة ودعوة للعلم " !

مابين الفناء والجذب

يرى المتصوفة أن الله حجاب مستور بالحجب ، ينبغى أن يزال واحداً بعد الآخر ، وهو ما يستلزم طهارة القلب بكبح شهوات النفس .. وهذا التطهر يوصف بأنه الطريق الذى يسلكه المريد بقيادة شيخه ، بكل الطاعة والإخلاص ، لإجتياز هذا الطريق ، فهو لن يصل إلى بغيته خلال الفترة القصيرة لحياته الدنيا " فالذى يسافر بدون مرشد يحتاج ما ئتى عام لبلوغ رحلة يومين اثنين "!

ويحدد الشيخ مقدار الوقت المطلوب لتأهيل المريد لسلوك الطريق ، وعندما يكتمل تأهيل المريد ، تعقد له جلسة خاصة ، ويقبض فيها الشيخ على يد مريده ، بما يعرف بـ " القبضة " وتتلى بعض من الآيات القرآنية ، ويتعهد المريد باتباع تعاليم شيخه وتوجيهاته ، وهو ما يسمى بـ " العهد " استناداً إلى الآية : " إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ، يد الله فوق أيديهم ، فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيمًا " .

وسلوك الطريق يتم من خلال عدة مراحل ، هي ما يعرف بالمقامات ، حتى يبلغ المريد مرحلة " الفناء فى الله " .. بالانتساب إليه والاندماج فى كينونته ، وإلغاء الصفات البشرية ، ويرتبط الفناء بالمقام التالى " البقاء" وهو ما يعرف بمرتبة " الإحسان" ..

يقول الشيخ أحمد رضوان : "كنت فى جلسة ذكر مع بعض الإخوان ، عندما ذهبت روحى ، ورحل قلبى إلى ربى ، فأبرز لى جماله ، فخلعت نفسى أمامه " هذا الحال يسمى " الحل" ويعرفها العامه بـ " الشهود" وهى حالة توهب للصفوة فى حضرة الإله ، فبينما يبدون " ظاهراً" مع الناس ، لكنهم " باطنًا " مع ربهم ، وهذه " الهبة الإلهية " ليس للمريد أن ينالها باجتهاده الشخصى فحسب !

بعد الانتقال إلى مرحلة " البقاء" التى يتمتع فيها بصفات الولى و " علم الله " وهى ما يطلق عليها أيضًا المرحلة النورانية ، يعود فيشارك الناس علاقاتهم الاجتماعية ، وفى كل مظاهر الحياة اليومية دون أن ينسى الله طرفة عين ، فالقلب معلق دائمًا بالله ، كما يخبرنا الشيخ أحمد رضوان : " ما من أحد يأتى من عند الله ، فهو يخبر الناس عن الله بالله ، ويرى ويسمع بالله ويتكلم به ، هو يقوم ويجلس بالله " ويقول أيضًا : " إن الله يجعل الناس يحبونه، حتى الميت الصالح يتعجل ليحضر جلسات الذكر الخاصة به وليستمع إلى كلماته " !

وحالة " الجذب" هى مرحلة على طريق بلوغ مرتبة الولاية ، وقد تستغرق سنوات طويلة ، يطوف خلالها المجذوب ببعض البلاد ، ويمكث كثيراً بالأضرحة ، ويأتى من الأفعال ما قد يشكك فى قواه العقلية ! .. ونرى كثير من هؤلاء المجاذيب حول المشهد الحسينى ومسجد الطاهرة وفى الموالد بشكل عام .

وكان الشيخ أحمد رضوان ، فى أوائل سنى حياته ، يلقب بـ " زعيم مجاذيب الصعيد " ! ويقول الشيخ : " الجذب هو حالة اختطاف إلهية ، يمكن أن يحدث بها انقطاع حتى يعود المجذوب ثانية إلى حالته الطبيعية ، وقد يكمل حالة الانجذاب دون أن يوقظ منها " .

والمجاذيب هم أناس أخذهم الله من أنفسهم ، فلا ينتمون إلى دنيانا - طبقًا لتعريف بعض شيوخ السجادة - ولايعاملون أحداً إلا أنفسهم ، فينبغى معاملتهم بالعطف والحسنى ، ومن الحكمة أن نجعل مسافة بيننا وبينهم ، فاذا أتاك أحدهم . أعطه ما يسأل ، فاذا سألك مالاً فلا تمنحه ، فالبنسبة للمجذوب الحقيقى يستوى المال والتراب ، كما يستوى عنده ارتداء الملابس والتجوال عاريا لايستره شىء ، ولاتسأله ، فاذا أعطاك شيئًا - ليمونة مثلاً - فتأكد أن بها البلاء ، فلاتلبس ملابسهم أو تؤاكلهم .. !

وربما تنتهى مرحلة الجذب هذه ، وينتبه المجذوب ، لكن عقله يظل لفترة غير مستقر ، ومنهم من يثبت فيها إلى آخر حياته ، أما الذين ينتقلون من هذه المرحلة ، فيتأهلون للولاية ، وخلال فترة الإعداد هذه ، يتعرضون لاختبارات قاسية ، قد تبدو غير مرضية فى نظر عامة الناس !

وعلى المجذوب أن يمحو من قلبه كل شىء عدا الذات الإلهية ، حتى الأهل والأولاد ، ولامكان فى قلبه سوى الله " فالله غيور ، ولايستطيع المرء أن يحب أكثر من واحد فى الوقت ذاته " !

وروى الشيخ أحمد رضوان كيف أنه قضى نحو الثلاثين عامًا فى بلاء ومحنة حتى كرهه أهل قريته ، ووجدوا فيه إنسانًا بغيضًا ، حتى تمنى له بعضهم الموت .." ولكنى لم أغضب منهم ، ولم أدع عليهم ، بل دعوت لهم دائمًا أن يرقق الله قلوبهم وأيديهم "!

وبالرغم من أن الإسلام يحض على الزواج ، وكان لرسول الله أسوة حسنة فى هذا الشأن .. إلا أنه منذ فجر الصوفى الإسلامى ، تبدو الأسرة وكأنها أكبر عائق فى الطريق إلى الله !

وقد شوهد " فضيل" الذى توفى بملكه عام ٨٠٣ م ، يبتسم لأول مرة خلال ثلاثين عامًا : عندما توفى ولده ! .. فالمتصوف الحقيقى " لايمكنه أن يتذكر أهله إلا فى موقف اللاهى عن حب الله " !

الهاتف السماوى

يقول الإمام الغزالى : " إن قلوبهم بها سبحات الجلال والهة حيرى ، وأرواحهم من تنسم روح الوصال سكرى ، فكل غايتهم أن يتحقق وجودهم فى الوصول إلى الله " ..

يعتبر الصوفية الغناء والسماع : أحد المقامات على الطريق فى الوصول إلى الله ، ويسمون هذا الطريق السفر أو الحج ، ولأجل تحقيق الوصول ، لابد من المجاهدة فى قطع عدة مقامات ، كل مقام أشبه بمرحلة ، وهى على التوالى مقامات : التوبه ، الورع ، الزهد، الفقر، الصبر ، التوكل ، الرضا .. والمقام الأخير يسمونه : راحة النفس أو السلام الروحى ، والتوصل إليه يكون بالوجد والحبور ، والغناء والسماع ، فيقولون : أنهم يسمعون الهاتف السماوى .. فى آية قرآنية ترتل أو شعر ينشد أو فى أصداء موسيقى ، فالله أوحى إلى كل مخلوقاته أن تسبحه بلسان الحال .

و " الذكر الجماعى " .. يعد أبرز نشاطات الجماعات الصوفية ، وهو رقص شعائرى يؤدى على أنغام لحن يؤديه " قوال " أو منشد ، غالبًا ما يصحبه قارعون للدفوف ، وعازفون على المزمار والناى .. من أجل جلاء القلب بالذكر وتهيئته لاستقبال الفيض النورانى ..

ويتخذ الذكر أشكالاً متعدده ، وقد يؤدى بصورة فردية أو جماعية ، بحركة أو بدونها ، ويمثل جوهر التصوف فى إفراغ العقل والقلب من كل شىء عدا الله ، والتحكم فى التنفس هو أحد سمات الذكر ، فيوثر عن البسطامى قوله : "العبادة هى مراقبة التنفس " .

ويتضمن الشكل العام لحلقة الذكر ، وقوف الرجال ، وأحيانًا بعض النساء ، فى صفوف منتظمة متقابلة ، يتمايلون للإمام وإلى الخلف فى البداية ، ثم يتسارع الإيقاع ، فيتمايلون يمنة ويساراً ، بينما أقدامهم ملتصقة بالأرض ، وفى القلب من الصفوف ، يقف الشيخ أو من ينوب عنه ، يقود الحلقه ، مصفقًا بيديه مشيراً إلى تغيير الإيقاع فى الوقت المناسب ، وأحيانًا يغشى على بعض الذاكرين فيتساقطون إلى الأرض .. ويسرع الإيقاع شيئًا فشيئًا ، لمدة عشرة أو خمس عشرة دقيقة ، ثم يتباطأ ، وقد يستمر الذكر عدة ساعات ، ويتعاقب الشيوخ لقيادة الحلقة ، ويظل المنشد على رأس الصفوف ، بينما للمريدين حرية الاستمرار أو ترك الحلقه وقتما يشاءون .. وقد يبدأ الذكر بتلاوة "ورد" الطريقة أو " حزب " الشيخ ، أو يختم به ..

وبالإضافة إلى المناسبات الاحتفالية كمولد النبى وموالد الأولياء ، فان الذكر الجماعى أو ما يطلق عليه " الحضره " يقام طبقًا لتقليد كل طريقة ، مرة أو مرتين فى الأسبوع ، فى الساحة حيث يتحلقون حول ضريح الولى المؤسس ، أو فى بيت أحد النواب أو المريدين .. وتنعقد الحضرة أيضًا فى مساجد بعض أهل البيت وبعض الأولياء ، فى أيام محددة من الأسبوع ، على سبيل المثال : عقب صلاة الجمعة مباشرة بمسجد السيدة زينب وبالمشهد



صورة تذكارية مهداه من نقيب الأشراف إلى د . فارس نمر



طقوس الدوسه وسرادقات الاحتفال بالمولد النبوى عام ١٨٦٩

الحسينى ، ويوم الأحد ، عقب صلاة العشاء بمسجد السيدة نفيسة ، ويوم الاثنين بضريح فاطمة النبوية ، والثلاثاء بضريح سيدى أبى السعود ..

القوال : يسمى الصوفية المغنى أو المنشد بـ " القوال" .. وقد آثر الصوفية هذه التسمية تحرزاً من استخدام كلمة المغنى ، التى اقترنت فى أذهان الناس بمعنى اللهو والمتع الحسية ، ولأنهم يستمدون الدليل على الشغف بالغناء والسماع من قوله تعالى " فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه " .. ويذهبون إلى أن أداة التعريف فى كلمة القول للتعميم والاستغراق ، فهى تشمل كل قول ، وقد ذاع هذا المصطلح بين الشعوب الإسلامية ، حتى أنهم ما زالوا فى الهند يسمون مجالس الغناء والطرب " قوالى " .

وفن الإنشاد ، كانت له قواعده وأصوله فى المجتمعات الصوفية ، كما أحاط أئمة الصوفية السماع ، بحدود وقيود من الآداب ، لايحتملها إلا أولوا العزم من الرجال ، منعًا من الإنزلاق فى هوى النفس ، ولذة الحس .

ويتغنى الصوفية بكلمات " سلطان العارفين " الشيخ الأكبر ابن عربى ، الذى أوغل فى مفازات " وحدة الوجود" وانطلق منها إلى آفاق العشق الإلهى ، وهو القائل :

أدين بدين الحب أنى توجهت ركائبه ، فالحب دينى وإيمانى

وأشهر من ساروا على هذا الدرب " سلطان العاشقين " ابن الفارض ، فهو شاعر العشق الالهى بغير منازع ، وقد سلك طريق المجاهدة والرياضة النفسية ، فساح فى وادى المستضعفين بالجبل المقطم ، كما ساح بأودية مكة ، حيث قضى بها خمسة عشر عامًا ، عاد بعدها إلى القاهرة - التى ولد بها - ليعطر أجواءها بنفحات من طيوب شعره ، وله ديوان شعر كبير ، اشتهرت منه قصيدة " الخمر الإلهية " التى يصدح بها كثيراً منشدوا الصوفية ، والتى تبدأ بـ :

شربنا على ذكر الحبيب مدامة سكرنا بها من قبل أن تخلق الكرم

وقد سُئل " ذو النون المصرى " المتوفى عام ٢٤٥ هـ ، عن الصوت الحسن ، فقال : " مخاطبات وإرشادات ، أودعها الله فى كل طيب وطيبة " ، وعن السماع قال :

" إنه تأثير إلهى يحرك القلب لرؤية الله ، وأولئك الذين يصغون إليه بأرواحهم ، يصلون إلى الله ، أما الذين ينصتون إليه بحواسهم وشهواتهم ، فهم الذين يسقطون فى المعصية " ..

ويقول الشبلي : " السماع ظاهره إغراء وباطنه موعظة " . . وبفلسفته التحليلية العميقة ، وتجربته الروحية ، ينتهي الإمام أبو حامد الغزالي إلى أن السماع " وسيلة فعالة في تحقيق أشواق الفناء في الله " . . فلا خير ولاجمال ولامحبوب في الدنيا ، إلا وهو حسنة من حسناته، وأثر من آثار كرمه ، وكل حسن وجمال تدركه العقول والأبصار والأسماع وسائر الحواس ، ليس إلا ذرة من خزائن قدرته ، ولمعة من أنوار حضرته ، وأن الذي " لايحركه الربيع وأزهاره ، ولا العود وأوتاره ، فاسد المزاج وليس له علاج " !

والله تبارك وتعالى ، قد أوحى إلى جميع مخلوقاته أن تسبحه بـ " لسان الحال " .. كما استقر في أفهام الصوفية : أن جمال الصوت أو النغم شيء صادر عن عالم ، يتذكر به السامع ما كان من لقاء الأرواح بالحي القيوم - قبل حلولها في الأبدان - وعلى السامع أن يوائم المعنى مع واقع حاله مع الله .

والصوفية في إنشادهم يرقصون وجداً وحبًا ، وشيئًا فشيئًا يغيبون عن حواسهم ونفوسهم ، يتلظون بنار الشرق وأوار العشق للذات الإلهية ! .. والأغاني من طبيعة المناسبة وجوهر المعتقدات الدينية ، كالحب الإلهي ، ومدح الرسول وسيرته ومعجزاته وصفاته ، ومآثر أهل البيت وأولياء الله وكراماتهم ، وملاحم وقصص تاريخية .

والخدمة اليومية في الموالد - بمختلف مظاهرها - تقوم بشكل عفوي ، دون تنظيم ، والصلوات المفروضة تؤدى جماعة في أوقاتها ، دون ركعات السنة والنوافل ، وأتباع كل طريقة يتلون " الأوراد" الخاصة بهم عقب الصلاة .. وبالنسبة للطريقة " البرهامية" عقب صلاة العصر ، يؤدون طقسًا أو شعيرة يطلق عليها " العصرية " .. حيث يجلس المريدون داخل السرادق ، في صفين متقابلين ، جالسًا بينهما في المقدمة " شيخ الطريقة " أو الخليفة ، ويبدأ القوال بذكر النسب الشريف للشيخ ، مروراً بجده الأكبر " ابراهيم الدسوقي" منتهيًا إلى رسول الله ، ثم يرددون كلمة التوحيد ، بعدها يهبوا واقفين ليبدأوا شعائر الذكر بلفظة الجلالة ، ثم اسم الإشارة " هو " .. يعقبه بعض أسماء الله الحسنى ، وعقب الانتهاء يتبادلون المصافحة وتحية الشيخ .

ومن الأراجيز والمواويل التي يرددها المنشدون في الموالد :

ناح الحمام واليمام والكـــروان غنـــى	واللي إبتلي بالغرام لا نام ولا اتهنى
في ليلة الوضع صار الكون في رنـــــه	فرحوا الحبايب وقالوا الزيـن يضْمَنَــا

رضوان يقول للنبى ياللأ نبـاع الجنـــه ونزور قصــور النعيـم ما مسها بَنّـا
قال له أنا ورايا ناس ف الباب بتستنى إن غبت عنهم يقولوا إيش غيبك عنـا

ومنها :

مدد .. مدد .. سيدنا النبى مدد مدد ... مدد .. سيدنا الحسين مدد
مدد .. مدد .. يا طاهره مدد مدد .. مدد .. يا شاذلى .. مدد
ويا بدوى ، يا مرسى ، يا حنفى يا راضى ، يا رفاعى ، سيدى ابراهيم
مدد .. مدد .. نظره ومدد

ومنها :

السيد اللى من الشباك مد إيده
من بلاد الكُفر جاب الأسير بحديده
فى أول الليل يقرأ الورد ويعيده
وفى آخر الليل يسلم ع النبى بايده

ومن الإنشاد الذى يعدد أوصاف النبى :

ياللى رأيتو النبى وازىّ وصفاته وكيف علم النبوة بين كتافاته
أنا بامدح اللى ولدته آمنه وبصت فيه كامل مكمل ، وعلامة النبوة فيه
خدى حبيبى يا حليمة وضنايا ونور عينى
خدى النبى غطيه .. واوعى يا حليمة من عيون الحاسدين توريه
وحق من أوجد علامة النبوة فيه ..
أنا بروحى ، وجسمى ، ومالى وأولادى للنبى أفديه
كشفت حليمة على خد النبى نور لقيت عمود نور لسابع سما نور
يا حليمة خدى النبى وأوعيه اسقيه لبن الرضاعة يا حليمة
اوعى تفرطى فيه ، واحنا الجماعة ، كلنا أمة النبى
يوم القيامة .. نلنا الشفاعة بيه

ومن أغانى العشق الإلهى :

اللى يدوق حبهـــم بالروح يفديهـــم	واللى دخل حيهم يعرف معانيهم
واللى عرف سرهـــم يبقى يناجيهـــم	واللى شرب خمرهم دايمًا يهيم فيهم
واللى يكون عبدهم روحـه تلبيهـــــم	وإن كنت تصفى لهم جرب وناديهم
واللى يصون عهدهم ينده يلاقيهم	واللى دفع مهرهم يمتعوه بيهم

تنظيم الإدارة المركزية للطرق الصوفية

نقابة الأشراف :

كان لصاحب منصب " نقيب الأشراف " حظوة وحقوق ، وعليه أيضًا واجبات فيما يتعلق بسلالة الرسول ، ويتميز بحقه وحده فى عقاب " الأشراف" وتنفيذ تلك العقوبات . كذلك له الحق فى تحصيل نسبة ١٠٪ من الديون التى يتوسط فى استخلاصها ، ويحتفظ النقيب بسجل يتضمن أنساب الأشراف ، بما يمكنهم من الحصول على مستحقاتهم ، وإدارة أوقافهم ، وتوزيع الدخل على من لهم الحق فى اقتسامه ..

وفى عصر الإمبراطورية العثمانية ؛ كان نقيب الأشراف مقيمًا فى استانبول، وفى كل عام، يقوم بتعيين نقيب كل ولاية أو قاطعة، وبالتالى كان على كل نقيب منهم أن يسترضى- نقيب الأشراف - بأثمن الهدايا ، ليضمن إعادة تعيينه فى العام التالى !

وقد تقلد الأتراك هذا المنصب ، حتى منتصف القرن الثامن عشر ، عندما ظفر به الشيخ "محمد أبو الهادى السادات " كأول مصرى ، وعقب وفاته عام ١١٦٨ هـ / ١٧٥٤ ؛ تقلد المنصب أحد أقربائه وهو الشيخ "أحمد بن اسماعيل السادات" حتى عام ١١٧٦ هـ / ١٧٦٢؛ بتنازله لـ " محمد بن أحمد البكرى " شيخ السجادة البكرية ، وظل مشايخ البكرية يتقلدون هذا المنصب ، حتى أوائل القرن العشرين ، عدا الفترات من نوفمبر ١٧٩٣ إلى سبتمبر ١٧٩٨، ومن فبراير ١٨٠٢ إلى فبراير ١٨١٦ ، ومن ابريل ١٨٩٥ إلى مارس ١٩٠٣ .

أرباب السجادة :

اقتصر مصطلح " شيخ السجادة " فى البداية على أقطاب الأشراف من " العنانية " الذين ينسبون أنفسهم إلى الخليفة عمر بن الخطاب ، و " الخضرية" المنتسبين إلى الزبير بن العوام ، ثم " الوفائية " الذين يوصلون نسبهم إلى الخليفة الإمام على بن طالب ، وقد تحول هؤلاء الأشراف ، ومعهم أشراف سلالة أبى بكر الصديق ، من عائلات إلى جمعيات وروابط صوفية، وتتساوى مكانة زعمائهم بمنزلة شيخ السجادة البكرية ، وتعتمد شرعية توليهم مناصبهم ، على الاعتراف بصحة نسبهم الشريف ، وكما نالوا ثروات طائلة ، فقد لعبوا دوراً هامًا فى إدارة البلاد ؛ كذلك حظوا بامتيازات عديده فى النظام القضائى ، وكان شيوخ هذه الطرق الأربعة - المرجع - فى كثير من الأمور بوصفهم " أرباب السجاجيد " .. !

ويجدر بالذكر ، أن واحداً من سلالة الإمام " عبد الوهاب الشعرانى " توفى عام ٩٧٣ هـ / ١٥٦٥ قد تولى الإشراف على ضريحه وأوقافه ، بحى باب الشعرية ، كان يلقب أيضًا بـ " شيخ السجادة " .. ولم يحظ غيره من شيوخ الطريقة بهذا اللقب .

الطرق الصوفية :

يذكر الجبرتى فى تاريخه ، عدداً من مشايخ الطرق الأحمدية المختلفة أطلق عليهم لقب شيخ السجادة ، وهذه الفصائل من الطرق ، عرفت فى الأصل باسم " بيوت" تمتعت بنوع من الاستقلال الذاتى ، وحقوق مكتسبة مارسها خلفاء السيد أحمد البدوى ، فى طنطا ، لمدة قرنين ونصف القرن عقب وفاته ، وأصبحت سلطة رؤساء خمس من هذه البيوت - مع بداية القرن الخامس عشر - معترفًا بها رسميًا من " خليفة المقام " وكتبت حُجة بهذا الشأن صادق عليها عدد من الوجهاء ، من " محاسيب " السيد البدوى .

هذا الإجراء الرسمى زاد من نفوذ البيوت الخمسة : " الكناسية " و " المنايفة " و" المرزوقية" و " الامبابية " و " السلامية " .. وهى التى عرفت فى مجموعها باسم : " البيت الكبير " .. وبمرور السنين ، اندمجت بها بعض الطرق الأخرى وهى : "الحلبية " و " الشناوية " و " السطوحية" ، و " الحمودية " والتى عرفت فى مجموعها بـ " البيت الصغير " ..

كذلك انضمت طرق أخرى ، منها : المسلمية ، البندارية ، الشعيبية ، الزاهدية ، والتسكيانية ..

مع بداية القرن الثامن عشر ، استحوذ شيخ " المرزوقية " سلطات مكنته من بسط نفوذه على جميع الأضرحة والطرق الأحمدية ، وقد وضعت له حدوداً جغرافية لسلطته ، لم يكن لها أن تلغى ، مع التأكيدات المتكررة حول شرعية ممارساته ! .. وتحددت له عضوية فعلية فى أكثر من طريقة بمبدأ ال " قَدَم" .. غير أنه لم تُسنّ حدوداً تنظم عضوية المريد فى الطريقة التى ليس لها قدم ، فى المنطقة التى يعيش فيها ، فالرابطة بين المريد والخليفة ، لم تكن محددة فى التنظيم الإدارى للطرق ، فالخليفة الذى ليس لطريقته قدم فى منطقة مريده ، لايمكنه التدخل فى حالة وجود منازعات ، أو يطلب له معاملة تفضيلية فى حالة احتجازه بدوائر الشرطة أو حين العرض على القضاء .

بالإضافة إلى ذلك ، أن أعضاء الطريقة التى ليس لها قدم فى المنطقة ، يحرم عليهم أى نشاط اجتماعى ، إلا باشراف ومراقبة الخليفة الذى تتمتع طريقته بحق القدم ، فى تلك المنطقة، بالرغم من عدم إنتماءهم إلى هذه الطريقة !

إدارة الطرق والسلطات الحكومية :

كانت إدارة البكرية تمد ولاة الحكم ، بأسماء الخليفة ونوابه ، القادرين على التعامل والسيطرة على جموع الألوف من الأتباع والمريدين ، طبقًا للقواعد التى تنظم إدارة الطرق ، بما يتلاءم مع البيروقراطية الحكومية ، وضمان خضوعها لسيادة الحاكمين المطلقة !

وهذا أيضًا ، يمكن السلطات الحاكمة من السيطرة على تنظيم الاحتفالات الدينية والموالد ، من خلال هؤلاء " الموظفين " وموضعهم من المسئولية تجاه تنظيم هذه الاحتفالات وسلوك المشاركين فيها من المريدين ، وحفظ النظام فى الحضرات .. مما جعل إدارة البكرى فى وضع متمايز لدى السلطة الحاكمة ، فاشرافها على تلك الإجراءات التنظيمية ، لم يكن فحسب تلبية لرغبة هذه السلطة ، وإنما أدت دوراً أمنيًا هامًا ، من خلال " فصائل " الطرق التى يمكن للشيخ البكرى استدعائها لمجابهة أى خروج أو مخالفة للنظام !

لم يكن مسموحًا على الإطلاق بأى تعدٍ على حقوق " القدم " فالتسامح تجاه مخالفة واحدة أو محاولة خرق النظام ، كفيل بتعريض نواب الطرق وشيوخها إلى فقدان الثقة بهم ، وبالتالى فقدانهم لحماية البكرى فى مناطق مصالحهم ، وارتباط نقابة الأشراف أو الإدارة البكرية بمصالح السلطة الحاكمة يوجب التحرك سريعًا لمجابهة خطر الإخلال بحق القدم .. ! فذلك يعنى ضمنًا - اغتصاب - لنفوذ ومصالح مشتركة .. يفسر قانونيًا بـ " تعريض السلام الاجتماعى للخطر " !

الصراع حول حق القدم وقراراته :

قد ينفجر الصراع على " القدم " على نطاق واسع ، عندما يدخل خليفة ما إلى منطقة ليس لطريقته فيها حق قدم ، سواء من أجل ضم مريدين جدد أو لإقامة حضرة أو للمشاركة فى الاحتفالات بأحد الموالد فى تلك المنطقة ، مما يعد اعتداءً صارخًا ، وقد تمضى عدة سنوات ، قبل اتخاذ إجراء متشدد ضد الطريقة المعتدية ، تكون قد تمكنت خلالها من اجتذاب مريدين جُدد ، وعدم سرعة الفصل فى هذا الأمر ، يكون غالبًا نتيجة لتجاهل واتفاق السلطات المحلية!

والصراعات حول حق القدم ، كان يمكن الفصل فيها بعرضها على القضاء ولكن يفضل حلّها - عادة - من خلال مجلس يضم نواب الطرق وبعض مشايخ وعُمَد المناطق أو النواحى التى شهدت هذه الصراغات ، وتبدأ إجراءات التحكيم بسماع الشهود ، وشهادة شيوخ الطرق التى تدعى حق القدم فى تلك المنطقة ، وقد يصدر نقيب الأشراف تعليماته إلى أحد نوابه باجراء التحقيق ، وهؤلاء النواب لايمكنهم فرض القدم بالقوة ، وسلطتهم لاتتعدى إبداء الرأى والمشورة ، فما أن يعترف بحق القدم ، فان شيخ الناحية والعمدة والمأمور ، لهم وحدهم تنفيذ هذا الحق وحمايته .

وفى الواقع فان الحفاظ على حق القدم ، وسلطة نقابة الأشراف ، يعتمد على التدخل الفعال لهؤلاء المسئولين ، والتزامهم بما يدعم النظام .

الأشراف ومسئولية الطريقة :

يحظى الخلفاء أو النواب المنحدرين من نسل شريف ، بمنزلة رفيعة ، فاذا ما خرقوا حق القدم لطريقة أخرى ، لايستطيع أحد أن يتخذ إجراءً رسميًا حيالهم ، فثمة شعور سائد بأن مجرد التفكير فى هذا الأمر ، يتنافى تمامًا مع ما يحظى به الأشراف من تبجيل وتقدير خاص، يمثل عاملاً مؤثراً فى جذب المريدين من الطرق الأخرى .

وفى حالة الجدل حول حق القدم ، التى يكون أحد الأشراف طرفًا فيها ، فينبغى إبلاغ نقيب الأشراف ، الذى يسعى إلى التحقق من صحة هذا الإدعاء ، بسؤال النائب الذى حدث الخلاف فى منطقته ، والذى بدوره يتحقق من الأمر ، فاذا ما أقيم الدليل على صحة الإدعاء ، فان نقيب الأشراف يصدر توجيهاته إلى المسئولين المحليين ، لحماية مهام الأشراف أطراف النزاع..!

وهذا الدور المحدد الذى قام به الأشراف ، فى جذب وهداية المريدين كان نتيجة مباشرة لمبدأ حق القدم ، كقيمة محورية فى إدارة نقابة الأشراف والهيمنة على الطرق ، مما أسهم فى تدعيم نفوذ نقباء الأقاليم ، فى الهيمنة على الأضرحة وإدارة الموالد ، خاصة بعد أن تقلدوا منصب " وكيل " فى التنظيم الإدارى للطرق الصوفية .

الخلافات التى لاعلاقة لها بحق القدم :

إلى جانب الصراعات الدائرة حول حق القدم ، فقد نشأت خلافات بين بعض الطرق التى تتمتع بهذا الحق بالتساوى ، فيشتد التنافس فيما بينهما ، وقد يصل الأمر بشيخ طريقة

وأعضاؤها إلى إعاقة نشاط الطريقة المنافسة ، كالمشاركة فى المواكب والاحتفالات ، وتتوالى الشكاوى إلى نقيب الأشراف والمسئولين المحليين ، وبعد معرفة جوانب الموضوع وإجراء التحقيق ، لابد من الوصول إلى تسوية مناسبة ، يحرر بها محضراً ، ويُرسل إلى نقيب الأشراف ، الذى يبلغ (مدير المديرية - حاكم الخط) المحافظ ، حتى يتولى تنفيذ التسوية المتفق عليها .

أما مسألة موظفوا الطرق الذين لايباشرون أعمالهم ، أو يتكاسلون عن أداء واجباتهم ، فهى منوطة بقضاء شيوخ الطرق ، وتتراوح العقوبة بين الطرد من الطريقة أو المنع المؤقت من المشاركة فى الاحتفالات بالمناسبات الدينية .

وبشكل عام ، فان نقيب الأشراف لايتدخل فى الشئون الداخلية لكل طريقة ، خاصة فى الخلافات التى قد تنشأ بين نواب الطريقة والمريدين ، فالحكم لشيخ الطريقة أو الخليفة يفصل بينهم ، أما إذا تصاعدت حدة الخلاف ، فان نقيب الأشراف يصدر تعليماته إلى أحد الوكلاء ، الذى يرتب لجلسة استماع بمقر الطريقة الرئيسى ، يتم فيها تسوية هذا الخلاف .

تنظيم الموالد :

كانت الصلة الوثيقة بين نقابة الأشراف والسلطات الحاكمة ، تستوجب انتشار المكاتب الإدارية للطرق الصوفية ، التى يبرز نشاطها فى المناسبات الاجتماعية المختلفة ، فاذا أهمل أحد الموظفين فى أداء واجباته ، كان على المسئولين الحكوميين تعيين غيره ، وكان خلو منصب " الخليفة " يحجم أنشطة المريدين إلى حد كبير ، لذا فمن صالحهم أن يسارعوا إلى تقديم طلب عاجل لتعيين خليفة جديد ، يكون شيخًا عليهم .

غير أن الأعمال الروتينية الأسبوعية ، لا تتأثر كثيراً بخلو منصب الخليفة فالحضرات الأسبوعية - على سبيل المثال - لم يكن بالضرورة أن يشارك فيها الخليفة ، ولا يشترط أن تتم فى المسجد أو فى الخلاء ، بل تقام غالبًا فى بيت أحد المريدين الميسورين ، ولكن وجود الخليفة يرتبط بأبرز أنشطة الطريقة وهى إحياء الموالد .

ومسئولية إحياء الموالد ، تأتى على رأس مهام الخليفة ، وما تتضمنه تلك الاحتفالات من مواكب المريدين حاملى الأعلام والبيارق ، وإقامة حلقات الذكر ، والتى تعقد غالبًا فى خيام أو سرادقات أعدت لهذا الغرض ، قريبًا من ضريح الولى صاحب المولد ، وخدمات تقديم الأطعمة والأشربة للحاضرين مجانًا ..

وإحياء الموالد ، هى مناسبات هامة تعلن فيها الطريقة عن نفسها وتقدمها إلى المجتمع ، فتجتذب أعضاءً جدداً ، وهذا النشاط الجماعى لأبناء الطريقة ، خلال الموالد ، هو شكل من أشكال تحقيق الذات ، خاصة إذا حظيت الطريقة برضاء نقيب الأشراف .

وتنظيم الموالد يعتمد أساسًا على شيخ الضريح ، الذى قد يكون هو الخليفة نفسه ، وفى هذه الحال ، يتولى الإشراف على ضريح الولى ، ويرأس احتفالات المولد ، وواقع الأمر أن هذا يشكل جزءاً من حق القدم .. !

وحق الخليفة فى القدم بهذه الناحية أو البلده ، يعطى الأولوية لأبناء طريقته ، فى تنظيم مولد ذلك الولى .

وقد تظهر بعض المنازعات الخاصة بحق رئاسة وتنظيم المولد ، عندما يتعلق الأمر بريع الأوقاف ، وهبات وذبائح وأموال يرصدها المحاسيب للإنفاق على المولد .. ! وهذه المنازعات يتم التعامل معها بنفس الأسلوب المتبع فى تسوية مشاكل حق القدم .

ومن الجائز للخليفة الذى يتمتع بحق رئاسة احتفالات المولد ، أن يتنازل عن هذا الحق لشيخ طريقة أخرى ، بشرط إبلاغ الحكومة وبعض كبار الشخصيات ، لاتخاذ قرار بهذا الشأن .

وعلى الخليفة أو شيخ الطريقة الذى سيترأس الاحتفالات بالمولد ، أن يحصل على إذن نقيب الأشراف قبل الموعد بوقت كافى ، وبعد أن تدرس أحقيته فى الإذن ، يقوم نقيب الأشراف بابلاغ المحافظ بموافقته ، طالبًا منه التصريح باقامة المولد ، وتصريح المحافظ هو فى النهاية من الأمور الشكلية !

والموالد تجتذب عادة جموعًا غفيرة من الناس ، وكان معظمهم من العاطلين عن العمل ، فينتقلوا من مولد لآخر ، ولذا ففى مواسم الزراعة والحصاد ، وأعمال السخرة وانتشار الأوبئة، كان يحظر التصريح باقامة المولد .

ويقوم نقيب الأشراف ومشايخ الطرق ، بالتنسيق مع المحافظات بحيث لا تتزامن بعض الموالد ، ومن المتبع أن يسهم ديوان المحافظة فى تكاليف المولد .

أشهر الموالد فى مصر ، هو مولد السيد أحمد البدوى بمدينة طنطا التى ارتبطت شهرتها بهذا القطب ، ويجتذب مولده أكثر من مليون مواطن ، من مختلف أرجاء مصر ، فنشأت مشكلة أمنية ، استوجبت إرسال تعزيزات من قوات الشرطه ، كل عام ، حتى يمكن السيطرة

على حالة الأمن وحفظ النظام ، وكان نقيب الأشراف يحرص على حضور احتفالات مولد السيد البدوى ، ويرأس مجلسًا لفض النزاعات ، ويفحص سجلات الأوقاف وطريقة إدارتها ، تحت إشراف نائبه أو وكيله بطنطا ، ثم يتلقى النسبة المخصصة له من أموال صندوق النذور الأحمدى ! .. ويقول على مبارك : " ومن العوائد البكرية ، أن السيد البكرى يتوجه كل عام إلى طنطا لإحياء ليالى المولدين الصغير والكبير بمنزله ، وتضرب هناك خيام أرباب الطرق وإذ ذاك يفصل قضاياهم " ومن العوائد البكرية أيضًا : الإذن لمشايخ الطرق والأضرحة بمصر بعمل موالدهم المعتادة ، ويكاتب الحكومة بملاحظة الضبط والربط أثناء تلك الموالد .. و " عمل موائد فاخرة ليالى خمس وعشرين من رمضان ، وعاشر المحرم ، ومقارىء سيدنا الحسين ، وسابع عشر ذى القعدة ، ويوم جمع المولد النبوى الشريف ، ومولد الإمام الشافعى ، ومولد عبد القادر الدشطوطى " والذى يحتفل السادة البكرية به طوال ثمانية ليال من شهر رجب تنتهى بليلة الإسراء والمعراج ، حيث تبخر القبة " وتوقد بها الشموع ، ويقرأ فيها حزب البكرى ، ثم يسقى جميع الحاضرين شرابا حلوا ، ويرش عليهم ماء الورد ويركب السيد البكرى فى موكب بهى ... "

الأضرحة :

يتولى رعاية أضرحة ومساجد أهل البيت وأولياء الله ، ما يعرف بـ " السدنة " أو خدام الضريح ، وهؤلاء لهم الحق فى نسبه من عائد صندوق النذور ، ومن ريع الأوقاف ، ويخضعون لنفوذ نقيب الأشراف ومشيخة الطرق الصوفية ، وكان نقيب الأشراف يتمتع بتعيين سدنة الأضرحة ، التى تنتشر بمصر فى كل قرية تقريبًا ، ويشترط فى سادن الضريح ، أن يكون على صلة قربى بالولى الذى سيشرف على ضريحه ، أو أن ينتمى إلى عائلة توارثت الأشراف على هذا الضريح .

ويكتسب السادن شرعية إشرافه على الضريح ، بعد فحص طلبه بدقة من الجهات الرسمية، وإجراء التحريات اللازمة عن سلوكياته وتقواه ، وشهادة بعض سكان البلدة أو المنطقة بصلاحيته - أو العكس - لتولى هذا المنصب الدينى ، أما إذا تم تعيين شخص ما - دون اتخاذ هذه الترتيبات السابقة - فمن حق أهل المنطقة أو القرية أو الناحية ، الإعتراض وتقديم التماس بتعيين شخص آخر ، ولنواب نقيب الأشراف والقاضى والمحافظ ، التدخل لحل المشاكل الإدارية التى قد تطرأ أثناء عمله ، ويمنح نسبة من عائد النذور والهبات ، وعقب صدور قرار تعيينه رسميًا ، يبلغ المحافظ ومديرية الأوقاف .

اللائحة الداخلية للطرق الصوفية
لعام ١٩٠٥

الفصل الأول :

مادة ١

يجتمع المجلس فى المقر الرئيسى لمشيخة المشايخ الصوفية فى كل أول سبت من كل شهر عربى فيما عدا العطلات والأعياد وتعقد جلسات أخرى فى الحالات الضرورية .

مادة ٢

تحفظ الدفاتر التالية بالمشيخة العامة :

– السجلات التى يسجل فيها ما يُحال إلى المشيخة من أمور وقضايا خلال العام على التوالى ، يوضع لكل قضية رقم ويكون كل رقم مرجعًا لكل قضية ، كما يتم وضع تاريخ واضح لتسجيلها فى الدفتر ، وكذلك اسم ولقب المدعى والمتهم ، وموضوع القضية وتاريخ انعقاد الجلسة المحدد لسماع القضية وملخص المحاكمة والقرارات المتعلقة بها .

– دفتر تحفظ به نسخ الرسائل الصادرة .

– دفتر تحفظ به نسخ الرسائل الواردة .

– دفتر يسجل به كل مشايخ الطرق والأضرحة والتكايا والزوايا وما شابه ذلك .

مادة ٣

يفتح محضر رسمى لكل قضية فى ملف مستقل يسجل فيه كل ما يظهر فى نطاق العملية القانونية مع ذكر واضح لتاريخ كل جلسة واسم رئيسها وأعضائها الحاضرين الذين تلتئم الجلسة بهم ، وعدد القضايا ، وأسماء الأطراف المعنية ، تأكيد وجود الحاضرين وإثبات غياب الأعضاء الغائبين ، وكذا إثبات التقارير والطلبات المقدمة من الأطراف المعنية وعدد الوثائق المقدمة وشهادات الشهود ، والقرارات الصادرة عن المؤتمرين إما بارجاء بحث الإجراءات القانونية لجلسة أخرى أو إصدار الحكم فيها ، ومع قرار التأجيل ينبغى تسجيل الأسباب وتوضيحها إما أن التأجيل الخاص بالجلسة كان بسبب الحاجة لاستكمال التحقيق وتجميع

معلومات أخرى متعلقة بالقضية أو أنه بسبب طلب أحد الأطراف ولأسباب معقولة يتبعها ذكر واضح لتاريخ الجلسة التى أجلت إليها الإجراءات القانونية .

مادة ٤

يقع على كاتب " باب المشيخة " مسؤولية إعطاء رقم القضية للمدعى إذا قام هو برفع القضية فى قسيمة (بمعنى إذا لم ترفع بواسطة عضو من أعضاء المجلس أو رئيسه) ويسجل فى القسيمة تاريخ الجلسة المذكورة وعلاوة على ذلك يسجل أسماء شخصيات الطرف المعارض أو المنازع .

مادة ٥

أما الأوراق التى يقدمها الطرف المنازع " لباب المشيخة الصوفية " كدليل قانونى يجب أن يقدم معها ملفان من نفس النوع على كل واحد من الاثنين توقيع الشخص الذى يقدمه . كما يجب أن يكون واضحًا على كل ملف عدد الوثائق التى يحتويها ، وتواريخها ، وتسجيل مستقل لكل وثيقة ، وبعد قبولها بواسطة " باب المشيخة " بالوثائق المقدمة إليها يوقع على واحد من الملفين بالاستلام ويعطى للشخص الذى قدم الأوراق ويحفظ الملف الآخر مع الأوراق التى بداخله والتى تخص القضية فى " دوسيه " مخصص لها .

مادة ٦

تجرى المشاورات بين أعضاء المجلس بعد أن تتم إجراءات الدفاع وذلك دون حضور أى من الطرفين المتخاصمين .

مادة ٧

إذا حضر المدعى متأخرًا إلى الجلسة تنحى قضيته جانبًا ، ويمكنه فتح المداولة بشأنها مؤخرًا، وإذا أتى المدعى عليه متأخرًا لأول مرة تؤجل القضية ، وإذا أتى متأخرًا لثانى مرة يعين نائب عنه ويحاكم فى حضور النائب ، وعلى سكرتارية الجلسة إعلام المدعى عليه بنتيجة المحاكمة ، وله الحق فى الاعتراض عليها قبل انقضاء خمسة عشر يومًا تبدأ من لحظة إعلانها.

مادة ٨

على المشيخة العامة أن تدعو أعضاء المجلس للجلسة كتابة قبل انعقادها بثلاثة أيام ، وعلى من لديه عذر يمنعه من الحضور فعليًا ، عليه أن يخبر المشيخة بعذره قبل ٢٤ ساعة من انعقاد الجلسة .

مادة ٩

إذا ما أصدر المجلس الصوفى حكمًا فى قضية فلا ينظر فيها ولا تستأنف .

الفصل الثانى : ما يتعلق بمشيخة الطرق :

مادة ١

لايصرح بتعيين شخص ما بصفة " شيخ طريقة " إذا لم يكن هذا الشخص ذا علم ومعرفة وكمال فى شخصيته .

مادة ٢

لايعين شيخ واحد لطريقتين .

مادة ٣ يعتبر مشايخ الطرق مستقلون عن بعضهم لكلٍ طريقته ، ولا يخضع أحدهم للآخر ولايكون لطريقة واحدة شيخان .

مادة ٤

تقوم التنظيمات الرسمية والقرارات الخديوية الصادرة فى يوم ٣ يوليو سنة ١٩٠٣ بحصر مهمة تعيين كل مشايخ الطرق فى مصر مهما كانت طبيعتهم فى المجلس الصوفى وتقتصر عليه ، ولايحق لأى مؤسسة أخرى تعيين أى واحد منهم يتم عزله ، ومن الآن فصاعداً لن يتم تعيين ولن يتم الاعتراف بشيخ إذا لم يعينه المجلس بغض النظر عما إذا كان الشخص من مشايخ السجاجيد أو من مشايخ الطرق الخلوتيه أو ما شابه ذلك .

مادة ٥

يمكن إضافة طرق جديدة ويعترف بها رسميًاعندما لاتتشابه " الطريقة " الجديدة من حيث اسمها أو مصطلحاتها الفنية مع احدى الطرق الموجودة فعلاً والمعترف بها .

مادة ٦

عندما تصبح الطريقة بدون شيخ (يخلو المنصب بموت الشيخ) يحل محله ابنه الأكبر ويخلفه فى منصبه ، ويخلف الابن الأكبر إبنه الأكبر فى حالة موته وهكذا ، بشرط أن يكون من ذوى المعرفة وله موهبة تؤهله للتعيين ، فاذا لم تكن هذه حالته فان من يستكمل تلك الاشتراطات من بين إخوته أو من بين أقربائه يعين فوراً ، فاذا لم يستكمل أحدهم هذه

الاشتراطات فان المجلس الصوفى يعين شخصًا مناسبًا فى المنصب الشاغر ، أما إذا كان الشيخ الراحل قد ترك ابنًا قاصرًا فانه يعين فى المشيخة ويعين له وصى مفوض يقوم بمهامه حتى موعد بلوغه السن القانونية .

مادة ٧

على كل شيخ طريقة أن يحوز أربع سجلات (دفاتر) حددتها المشيخة العامة كالتالى :

- دفتر لنسخ المراسلات الصادرة .
- دفتر للراسلات الواردة .
- دفتر به قائمة لكل نواب وخلفاء الطريقة .
- تواريخ تقليدهم المناصب .
- دفتر تسجل به الأحكام التى يقضى بها الشيخ فى المنازعات التى تجرى بين أعضاء الطريقة .

وعندما تصبح الطريقة بغير شيخ (بموته) تسلم هذه السجلات إلى باب المشيخة وبالتالى فانه بعد أن يعين شيخ جديد تدفع إليه الدفاتر .

مادة ٨

يحظر بتاتًا أن يجعل أحد الأشخاص برتبة "خليفة" وهو حينئذ ليس على دراية ومعرفة متخصصة .

مادة ٩

على كل شيخ طريقة أن يعين خليفة فى المدن المختلفة والقرى من بين أولئك الذين هم على علم بقيادة الناس ويعين نائب فى كل " مركز " يكون له فيه مريدون كثيرون .

مادة ١٠

على كل شيخ طريقة أن يقوم بجولات بين خلفائه خلال العام وأن يفتش على أعمالهم وعن كيفية أدائهم للإرشاد الذى عهد به إليهم .

مادة ١١

ينبغى ألا ينعت نواب الطرق فى المناطق الريفية والنواحى بلقب " شيخ الطريقة " فيها ولكن يلقبون بلقب " نائب " تنفيذى .

مادة ١٢

لا يُصدر الشيخ " إجازة " لأحد إلا إذا وجده كفئًا وينبغى طبع الإجازات وأن تحوى معانى مضبوطة بالإذن القواعد التى طبقًا لها يقوم الخليفة باعطاء إرشاداته بدون تدخلات ولايجوز للشيخ أن يعطى خليفته إجازات دون أن تكون عليها أسماء محددة حتى لايوزعها لأى أحد يرغب فيه .

مادة ١٣

لايجوز لشيخ الطريقة أن يكلف مريديه بالتزامات مادية سنوية معتادة سواء على المريدين أو الخلفاء ، ولكن يمكن له ولخلفائه أن يقبلوا ما يقدم إليهم كهبات تعطى بنفس راضية من الواهب بشرط ألا تكون بذلك علاقة باحدى القضايا المعروضة عليهم أو بأمر يتعلق بتعيين أحد الخلفاء بالنظر إلى أنه لاتوجد رسوم تدفع فى مثل تلك الأمور .

الفصل الثالث : وكلاء المشيخة

مادة ١

لكل إدارى بالمحافظات " وكيل مشيخة " يعين من أفاضل وجهاء هذا المركز ولايكون لقبه الذى ينادى به شيخ مشايخ الطرق " فى المنطقة التى يسكن بها ولكنه ينادى بلقب " وكيل" المشيخة المنفذ وسوف يكون على اتصال مباشر مع باب المشيخة وينبغى إخطار المديرية التى يتبعها المركز الذى يسكن به) كما ينبغى نشر ذلك التعيين فى عدد من الجرائد اليومية .

مادة ٢

لايعين من يكون نائبًا لطريقة " وكيلاً " للمشيخة " مادام يحتفظ بمنصب النائب وتقليده لمنصب وكالة المشيخة مسموح به إذا تخلى عن منصب النائب .

مادة ٣

على وكلاء المشيخة أن يحتفظوا بسجلات الأحداث التى تتعلق بالصوفية .

وللوكلاء عندما تكون هنا لو حاجة ماسة الحق فى تعليق المنصب مؤقتًا حتى يتم إحالة القضية إلى الجهة المناسبة لهذا الإقرار (تظهر الوكالات المناسبة فى ماده ١٣ من المرسوم الخديوى لائحة ٢ يونيو ١٩٠٣) .

مادة ٤

ينبغى على وكلاء المشيخة أن يرسلوا الأحكام التى يصدروها فوراً واحداً بعد الآخر حتى يتمكن المجلس الصوفى من الاطلاع عليها ، أما الأحكام التى قُدِّم بصددها التماس فان المجلس يحكم فيها بما يراه مناسبًا ، فاذا كانت المدة التى يسمح خلالها بالإلتماس " ضد الحكم العائد" قد انقضت وأصبح الحكم ساريًا يكتب المجلس إلى الإدارة بتنفيذه إذا كانت القضية تتطلب ذلك ، وتبلغ المدة المسموح بها لإجراء الاستئناف ثلاثين يومًا تبدأ من يوم إعلان الحكم إذا كان الطرف المعنى حاضراً ، أما إذا كان الطرف المعنى غائبًا يمهل ثلاثين يومًا من اليوم الذى تنتهى فيه المدة التى فى خلالها يكون الاعتراض ممكنًا .

مادة ٥

على كل وكيل مشيخة أن يكون لديه سجلات كما فصِّل سابقًا فى المادة الثانية من الفصل الأول لإنجاز ما يهمهم فى المركز التابعين له .

مادة ٦

على وكلاء المشيخة إعلام المشيخة العامة عن كل ضريح أو زاوية فى منطقتهم يصبح فيها المنصب شاغراً لكى يعين فيه شخص آخر .

مادة ٧

إذا صدر عن الوكيل أى إنحراف أو مخالفة للحقيقة وأصبحت الانحرافات بادية للعيان تصم أحد وكلاء المشيخة فانه يفصل من منصبه .

مادة ٨

لايرد وكلاء المشيخة الحكم فى القضايا التى تتعلق بالأضرحة فهذا يعد من اختصاص المجلس الصوفى .

الفصل الرابع : فيما يتعلق بالأضرحة :

مادة ١

تقوم المشيخة – فيما يخص كل ضريح يتبع سلطة المشيخة الصوفية ، بتعيين خادم أو شيخ خدمة وخدم طبقًا لما تكون عليه حالة الضريح ومتطلباته ولايتم تعيين عدد أكبر مما تتطلبه سدانة الضريح .

مادة ٢

من كان مسئولاً عن ضريح لمدة خمس سنوات فان له الأولوية على الآخرين لتولى المنصب حتى ولو لم يكن من سلالة الولى المدفون بالضريح ، وإذا لم تكتمل فيه تلك الشروط فان لسلالة الولى الأولوية على الآخرين ، ولايتم تعيين شخص حتى تستكمل عنه إجراءات بحث واستقصاء كافية للتأكد من أن هذه الاشتراطات قد استكملت .

مادة ٣

تجمع النذور بواسطة شيخ الخدمة مع إبلاغ الخدمة (وهم الخدم والموظفون الذين لهم حق فيها) ثم تقسَّم تدريجيًا وترمى ويفرج بين كل كومة ويتم حصرها فى نهاية كل شهر ، وتقسم فى أنصبة متساوية ، وتخصص حصته من هذه الحصص للصرف على الاحتفالات فى الأعياد الدينية التى تقام بالضريح ويوزع الجزء الباقى على شيخ الخدمة والخدم طبقًا لما تم بيانه فى مراسم التعيين .

الفصل الخامس : فيما يتعلق بالشئون العامة :

مادة ١

ليس للتصوف هدف إلاّ الحصول على المعرفة بالقانون وتطبيقه .

مادة ٢

يطرد من الطرق الصوفية كل من :

أولاً : كل من يعرف باعتقاده بعقيدة مخالفة للشرع الإسلامى مثل نظرية الحلول والاتحاد والتحلل من الفرائض الدينية لأناس معينين أو ما شابه ذلك من عقائد .

ثانيًا : كل من عرف عنه أفعال مضادة ومناقضة للأعمال والسلوك المطابق للشريعة مثل ضرب إنسان بسلاح أو أكل الحشرات وما شابه ، الذكر مع الرقص وإلقاء الشخص بنفسه على الأرض ، وعدم استكمال كل حروفه ، والغناء بأغان غير أخلاقية ، وإقامة الزار بالأضرحة والأعمال المشابهة .

مادة ٣

ينبغى أن يكون الذكر الصوفى : تفكر فى الله وجلاله والنطق بذلك صراحة ووضوحًا واقفين أو جالسين بخشوع وكرامة وفى حضور الخلفاء الذين لديهم إجازة من مشايخهم .

مادة ٤

يجب على كل شيخ طريقة وعلى كل خليفة أن يحضرامعًا مع المريدين فى ليلة أو أكثر من كل أسبوع إلى زاوية أو مكان خاص لذكر الله تعالى وتسبيحه ، وعلاوة على ذلك يتم إعطاء التعليمات والإرشاد بعد ذلك ويسمح للشيخ أو الخليفة أن يعين واعظ للحلقة شيئًا عن العقيدة والسلوك القويم ليرشدهم إلى الصراط المستقيم .

مادة ٥

يلغى مبدأ "الأقدام" المتعارف عليه فى الطرق فى المناطق الريفية .

مادة ٦

يمكن لكل شخص باقامة مولد وتنظيمه إذا ثبت قيامه بفعل ذلك لمدة لاتقل عن خمس سنوات ، ومن الأمور الأساسية أنه لاينبغى أن يقوم بجوار المولد أو موقعه الملاصق أى شيء يناقض السلوك القانونى مثل الألعاب والملاهى وما شابه .

مادة ٧

تحظر كافة المواكب نهاراً ،عدا التى يصرح بها باب المشيخة وينبه أنه فى المواكب لاينبغى لأحد أن يمتطى الخيل إلا مشايخ الطرق أو نوابهم ومن الضرورى أن لايصاحب المواكب أى شيء يخالف السلوك القانونى ، ويكون ترتيب الطرق إذا أتت معًا فى أى موكب كالتالى :

١- المرازقة الأحمدية ٢- الكناسية الأحمدية ٣- المنايفة الأحمدية

٤- السلامية الأحمدية ٥- الإمبابية الأحمدية ٦- الحلبية الأحمدية

٧- التسكيانية الأحمدية ٨- الشعيبية الأحمدية

مشاهد من عالم الموالد :

عالم الموالد ملىء بالأقطاب والأولياء والمجاذيب والكرامات .. قدر امتلاؤه بالبسطاء والفقراء والمسحوقين ! .. لوحة كرنفالية باهرة الألوان زاخرة بالغرائب .

ولكل مولد طابعه المستقل .. سماته الخاصة ، بالقياس إلى موقعه ، وتفوق النشاط الدينى التجارى ، وأعداد الزوار .. "وظاهر بارزة " بأحد الموالد قد تنعدم تمامًا فى مولد آخر .

وبالإضافة إلى المريدين والدراويش ، هناك أيضًا المحبين ممن يلتمسون بركة الولى ، ثم جماعات من الشباب ، همها الأول قضاء وقت ممتع مسل ! .. ومنهم من يشد الرحال إلى مولد معين ، ومنه ينتقل إلى عدة موالد أخرى سواء بالقاهرة أو بوسط الدلتا أو بأقصى البلاد ، حتى أصبحت بالنسبة لهؤلاء : تقليد متبع أو عادة سنوية .

والموالد بصفة عامة ، تمثل أهم مناسبات تجديد العلاقة وتوثيقها بين أتباع الطرق الصوفية من خلال الولى المحتفى بمولده ، وبعض الأولياء يرتبط الاحتفال بمولدهم باحدى الطرق الصوفية، وأولياء آخرون يفوق الاهتمام بهم حدود طريقة صوفية معينة .

ومولد الإمام الحسين هو أشهر موالد القاهرة ، وكان الاحتفال به يستمر لمدة أسبوعين ، ثم تقلصت مدة الاحتفال إلى أسبوع واحد فقط ، لدواعى الأمن ، والليلة الختامية يوم الثلاثاء ، ويبدو الجامع كتلة من الأنوار المبهرة ، وتنتشر السرادقات حوله وفى ساحته وفى المنطقة المحيطة به ، وتظل المطاعم والمقاهى تستقبل روادها طوال ٢٤ ساعة ، مع غروب الشمس ، ليس هناك موطىء لقدم ، ضجيج الميكروفونات يتصاعد من جميع السرادقات ، بقراءة القرآن والخطب والإنشاد ، تتداخل الأصوات الصاخبة وتتدافع الأجساد المتلاصقة ، حلقات الذكر تنتشر من داخل المسجد إلى ساحته والشوارع الجانبية، روائح البخور والعطارة والشواء تتضوع فى الأجواء ، شوادر الحمص والحلوى بأنواعها تشارك بالإعلان عن بضاعتها فى الضجيج العام! باعة الشاى على الأرصفة ، وباعة المسابح والطراطير الملونة ولعب الأطفال .. وبصعوبة تتخلص من إلحاح الجميع ! .. وعقب صلاة العصر ، من يوم الليلة الختامية ، تتوافد مواكب الطرق الصوفية .. أبرزها " زفة الخليفة " ممتطيًا حصانًا أبيضًا ، وبين البيارق والرايات التى تميز كل طريقة ، تتم الدورة مع التهليل والإنشاد الجميل والزغاريد .. مولد الحسين باختصار شديد هو مهرجان شعبى صاخب بكل ما تعنيه الكلمة من دلالات !

وتكاد تتشابه الصورة بالنسبة لمولد السيدة زينب ، عقيلة بنى هاشم وأم العواجز و"رئيسة الديوان " حيث تمتد السرادقات الصاخبة وحلقات الذكر والأنشطة الترفيهية كالرماية ببنادق الرش وألعاب السيرك والسحر والمراجيح ، من الميدان وشارع بورسعيد إلى الحوارى المحيطة بالمسجد .. وصخب الزحام والضجيج فى الليلة الختامية يفوق الوصف !

وفى مولد " نفيسة العلم " تنتشر السرادقات بالميدان والشوارع الجانبية ، تستخدم الأحواش بمنطقة المقابر كمطابخ وأماكن للإقامة . إلى جانب الخيام المنصوبة بين المقابر ، فرق الإنشاد والموسيقى وحلقات الذكر ، وسرادقات إطعام الزوار ، وهنا وهناك ترى الأضاحى المنذورة للسيدة نفيسة ، وباعة الشاى والحمص والحلوى والفول السودانى وتسجيلات الإنشاد الدينى والطراطير والقبعات الملونة والترمس .. بينما أحد المجاذيب يتمتم بعبارات غامضة .. فجأة ينطلق عدد من الرجال والشباب والنساء - من جمع الاتجاهات - حاملين بأيديهم ما صادفهم فى طريقهم ، لنصرة أصحاب مقهى بجنوب المسجد فى معركة حامية غير متكافئة ، وبعد مطاردة الخصوم والتفانى فى " أداء الواجب " عادوا جميعًا هؤلاء " الأنصار " يتساءلون فى بساطة شديدة عن " سبب الخناقة " !!

ومشهد لعربات " الكارو " التى تغص بالنساء والأطفال ، البهجة تغمر الجميع ، فى طريقهم إلى منطقة المقابر .. حيث مولد " سيدى زين العابدين " وتذكرت موقف شيخ المؤرخين " الجبرتى " الرافض والناقد لما يحدث فى الاحتفالات بموالد الأولياء واعتبرها من " الحوادث البدعية " فى حديثه عن : عثمان أغا المتولى أغات مستحفظان ، عندما قام بتجديد " مشهد الرأس " وهو رأس زيد بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب - رضى الله عنهم - ويعرف هذا المشهد عند العامة بزين العابدين، ويقصدونه بالزيارة صباح يوم الأحد".. فلما كانت الحوادث ومجىء الفرنسيس أهملوا ذلك وتخرب المشهد وأهيلت عليه الأتربة ، فاجتهد عثمان أغا المذكور فى تعمير ذلك ، فعمره وزخرفه وبيضه وعمل به ستراً وتاجًا ليوضعا على المقام ، وأرسل فنادى على - أهل الطرق الشيطانية ! - المعروفين بالأشاير وهم السوقة وأرباب الحرف المرذولة الذين ينسبون أنفسهم لأرباب الضرائح المشهورين كالأحمدية والرفاعية والقادرية والبرهامية ، وأكد فى حضورهم قبل الجَمْع بأيام ، ثم أنهم اجتمعوا فى يوم الأحد خامس عشرينه (رجب ١٢٢٥هـ) بأنواع من الطبول والزمامير والبيارق والأعلام (والشراميط) والخرق الملونة والمصبغة ، ولهم أنواع من الصياح والنباح والجلبة والصراخ

الهائل، حتى ملأوا النواحى والأسواق وانتظموا وساروا وهم يصيحون ويترددون ويتجائرون بالصلوات والآيات التى يحرفونها وأنواع التوسلات ومناداة أشياخهم المنتسبين إليهم بأسمائهم كقولهم برفع الصوت وضرب الطبلات : يا هو يا هو يا جباوى يا بدوى ويا دسوقى ويا بيومى، ويصحبهم الكثير من الفقهاء والمتعممين والأغا المذكور راكب معهم ، والستر المصنوع مركب على أعواد ، وعليه العمامة مرفوعة بوسط الستر على خشب ، ومتحلقين حوله بالصياح والمقارع يمنعون أيدى الناس الذين يمدون أيديهم للتمسح والتبرك .. ولم يزالوا سائرين على هذا النمط والخلائق تزداد كثرة حتى وصلوا إلى المشهد خارج البلدة .. وصنع فى ذلك اليوم والليلة أطعمة وأسمطة للمجتمعين وباتوا على ذلك إلى ثانى يوم " !

وفى مولد " الإمام الشافعى " الذى يتخذ مظهر العيد الشعبى ، فالى جانب نشاط الطرق الصوفية الملحوظ ، وحلقات الذكر والإنشاد ، هناك أيضًا جو من البهجة يشيعه النشاط الترفيهى كتزيين المسجد والضريح والمحال والمنازل وانتشار السرادقات المخصصه للذكر والفرق الموسيقية وألعاب الملاهى والتسلية ، والخيام المتناثرة التى تستقبل الزوار بمظاهر من الحفاوة والدعوة لتناول الطعام واحتساء الشاى وتدخين المعسل ! .

وفى مولد " سيدى حسن الأنور " ومولد " السيدة سكينة " وهما من الموالد التى تستمر لثلاثة أيام فقط ، نشاط الصوفية بها محدود إلى حد ما . ويميزها الفرق الموسيقية المتجولة على عربات الكارو ، تتلقى " نقوطًا " من المشاهدين ، وحلقات لرقص الجياد على أنغام المزمار .

وستظل المظاهر والتقاليد المتوارثة فى الموالد ، سواء بالمدن أو القرى ، بالرغم من التأثيرات العصرية فى مختلف مجالات الحياة ، وستستمر لأنها تلبى حاجة متأصلة عند العامة من الناحيتين الدينية والاجتماعية .

وفى موالد الأقاليم ، بوسط الدلتا ، كمولد " سليم أبو مسلم " ببلبيس ، ومولد " أبو المعاطى " ومولد " أبو خليل " بالزقازيق .

ومولد " سيدى سالم " بسنتريس منوفية " ومولد " أبو العباس " ومولد " سيدى عمر جعفر " بمركز الباجور ، ومولد " الشيخة شلباية " بسبك الضحاك ، ومولد " أبوغانم " بمنية سمنود على سبيل المثال ، فيغلب عليها طابع حياة الريف ، فتسهم العائلات الثرية وبعض الهيئات الحكومية فى إقامة السرادقات ، ويتولى الإشراف على الاحتفالات والخدمة وكلاء المشيخة

العامة للطرق الصوفية .. وقبيل بدء الاحتفال بعدة أيام ، نلحظ وفود المريدين وممن يطلق عليهم " الموالدية " الذيم يهبون أنفسهم لحياة التجوال بين الموالد تزدحم بهم القريه أو المركز، شيئًا فشيئًا ، يصطحبون خيامهم وبعض الأغطية البالية ومواقدهم ونسائهم وأطفالهم، وتأخذ المراجيح وعربات القنص بالبنادق و " دق الطاره" أماكنها واكشاك الحلاقين لإجراء عمليات الختان ، كذلك سرادقات السيرك والغوازى والحواه والأراجوز ، ويبلغ صخب الزحام ذروته - كالمعتاد - فى الليلة الختامية أو " الليلة الكبيرة " .. !

وفى الفيوم ، يحتفل شعبها بأوليائه فى يوم الاحتفال بمولد النبى ، وتزدان الشوارع بأبهى الألوان والأنوار ، وموكب الطرق الصوفية يطوف بكل مقامات الأولياء التماسًا لبركتهم ، وشيوخ السجاجيد يتصدرون الموكب راكبين الأبل بالجلباب الأبيض والعقال البدوى ، تزين صدورهم أوشحة باللون الذى يميز كل طريقة .

ومن الأولياء المشهورين بالفيوم ، الشيخ " أبو الحمل " والشيخ " جاد الحق " الذى يطلى جدران ضريحه بالحناء !

ويأتى على رأس هؤلاء " سيدى على الروبى " الذى يحتفل بمولده فى النصف الأول من شعبان ، وينسب إليه كثير من الكرامات ، منها أنه تنبأ للسلطان الظاهر برقوق بتولى حكم مصر ، وأنه أنقذ المدينة من الدمار خلال الحرب العالمية الثانية ، ببركته التى حولت مسار القنابل إلى بحر يوسف !

وتوهب النذور باسمه ، وتنتشر الخدمه فى ساحة مقامه بتقديم الطعام والشراب ، وحلقات الذكر والإنشاد .. ويتميز مولد الروبى بالإقبال الجماهيرى الضخم من مختلف الطوائف ، مسلمين وأقباط أيضًا ، وتنتشر به ظاهرة ختان الأطفال ، وحلق شعر رؤوسهم ثم يؤخذ جزء منه فيلقى به فى بحر يوسف ، والباقى يحتفظ به فى شق جدار من أركان المنزل !

هناك أيضًا " الشيخه مريم " التى يحتفل بمولدها مرة فى يوم شم النسيم والأخرى فى ذكرى مولد النبى ، وقد اشتهرت ببركتها فى الشفاء من العقم !

وفى مركز مغاغة بالمنيا ، وعلى وجه التحديد بقرية " بنى واللمس " على البحر اليوسفى ، يشتهر مقام سيدى " حسن أبو رايتين " ويزعم أهل القرية المذكورة أنه كان مدفونًا بقرية "الجرنوس" ثم طار بنعشه ليدفن فى قريتهم ! ويروى عنه الكثير من الكرامات ، ويعتقدون أنه

يحرس القرية ويحفظها من السرقات وعداوات الدم ! ويلجأون إليه لرفع المظالم وللعلاج من الحالات المرضية المستعصية والرغبة فى الإنجاب !

ويبدأ مولده فى غرة ربيع الأول ، مع بدء الاحتفال بالمولد النبوى حيث تنصب أكشاك أو ما يسمى بـ " الفرش " لبيع الحلوى والفول والشاى والمأكولات ، وألعاب الملاهى والقمار ويصحب رب كل أسرة أسرته للإقامة حيث المولد لعدة أيام ، ويخرج سدنة الضريح مع شباب القرية حاملين " بيرق " الشيخ أبو رايتين ، يطوفون به أمام كل منازل القرية ، فيخرج لهم أهل كل منزل " العادة " بين قرع الدفوف والطبول .

،هناك فى صعيد مصر ، تكثر ظاهرة " الدورة " كتقليد متبع فى موالد الأولياء حيث يطاف بالكسوة الجديدة للمقام فى موكب صاخب ، ويعد من الأحداث الهامة التى يترقبها الجميع بكل الشوق ، وتتخذ شكل المحمل أو الهودج ، حيث توضع الكسوة على قوائم خشبية فوق ظهر جمل ، وقد يوضع تحتها مصحف ، أو يجلس الخليفة تحتها ويرفع إليه الأطفال، ومئات من الأيدى تحاول لمس الكسوة ، لنيل شيء من البركة ! .. ويشاهد هذا الموكب أو الدورة ، فى مولد " السلطان الفرغل " بأبوتيج ، وسيدى " أبو الحجاج " والشيخ " موسى " بالأقصر ، والشيخ " على " بأسوان و " أبو الحسن الشاذلى " بطريق عيذاب .

ويتميز مولد " أبو القمصان " بالقرنة .. بطقوس " الدوسة " الفريدة من نوعها ، حيث يجلس المريدين القرفصاء فى صف طويل ، قابضين بأسنانهم وأيديهم على سكاكين طويلة ، ثم يخطو " الشيخ عبد الله " الخليفة ، على هذه السكاكين ، مستنداً على رجل من كل جانب .. وبعض الدراويش يدخلون سيوفًا وأسياخًا حديدية فى بطونهم وأفواههم ! .. ويعتقد الشيخ أن بعض الأولياء يحضرون طقوس الدوسة هذه .. وربما يحضرها أيضا رسول الله ذاته !

زفة المولد فى بورسعيد :

حوالى الساعة الرابعة ، من يوم السبت ٢٠ أغسطس ١٩٩٤ ، بدأت شوارع بورسعيد تخرج أثقالها من النساء والأطفال والشباب ، فى جماعات أتت من كل صوب ، تجاه طريق البحر وميدان الشهداء ، محملين بأشواقهم والبهجة تغمر كل الوجوه ، فى مشهد احتفالى رائع لايتكرر إلا مرة واحدة فى العام ، اختفى من حياة سكان العاصمة ، لكن من الواضح أن سكان الأقاليم ، وريف مصر ، قد حملوا على عاتقهم مسئولية استمرار الظواهر الثقافية المصرية ، شديدة الخصوصية .. !

باعة الحلوى والحمص وحب العزيز والذرة المشوية والدندرمة والفشار ، اصطفوا بعرباتهم على جانبى الشوارع التى سيمر بها موكب المولد ، شعب بورسعيد تجمع بمختلف طوائفه بحدائق ميدان الشهداء ، والشوارع المؤدية إليه ، صخب الزحام يزداد شيئًا فشيئًا .. صعدت إلى أعلى مكان من نافورة رخامية أمام مجمع محاكم بور سعيد ، حتى يمكننى تثبيت هذه اللحظة الزمنية فى بعض الصور التذكارية .. من بعيد .. بدأت تظهر الرايات والبيارق فى طريق البحر ، و " الزفة " تزحف فى بطء تجاه الشرق ، خلف مبنى مديرية الأمن وديوان المحافظة ، حتى سور قناة السويس ، ثم عادت غربًا ، من شارع أحمد عرابى إلى ميدان الشهداء .. حيث توقفت فى الساعة السادسة والنصف ، فى مقدمة الزفة : فرقة للأمن المركزى ، يليها أربع سيارات مرسيدس بيضاء تحمل ضباط الشرطة ، ثم عربات المطافىء والإسعاف وسيارتان للبحرية ، ثم فرقة الدراويش وطوائف الصوفية ، كل طريقة تميزها الأعلام والبيارق باللون الذى اشتهرت به ، أربع نماذج للكعبة محمولة على سيارات ، يحيطها أطفال يرتدون الملابس العربية ، كما تعود كبار التجار بالمدينة ، المشاركة بسيارات مغطاة بالزهور والورق الملون ، فى أشكال زخرفية رائعة يتوسطها اسم " محمد " أو كلمة " التوحيد" ونماذج ضخمة لعرائس المولد ، وكل سيارة تصاحبها فرقة إنشاد ، زغاريد وغناء ورقص ومحاولات للإمساك برايات الصوفية وتقبيلها التماسًا للبركة ! .. فى الساعة السابعة والنصف ، تتحرك الزفة ، عقب وصول ركب محافظ بورسعيد إلى مسجد " العباسى " بشارع محمد على ، حيث بدأت مراسم الاحتفال الرسمى بعد أداء صلاة المغرب .

مولد السيد البدوى

" .. وهل أحد يجهل سيدى أحمد رضى الله عنه ، إن أولياء ما وراء البحر المحيط وسائر البلاد والجبال يحضرون مولده " !

هكذا قال الإمام " الشعرانى " بعد أن أشار إلى أطفال الهند الصغار " الذين لايحلفون إلا ببركة سيدى أحمد رضى الله عنه " ! .. ثم أورد رواية شيخه " محمد الشناوى " .. أن شخصًا أنكر حضور مولده :

" فسلب الإيمان ، فلم يكن فيه شعرة تحن إلى دين الإسلام ، فاستغاث بسيدى أحمد رضى الله عنه ، فقال بشرط أن لاتعود ، فقال نعم فرد عليه ثوب إيمانه " ! .. وأضاف السيد البدوى قولته الشهيرة : " وعزة ربى ، ما عصى أحد فى مولدى، إلا وتاب وحسنت توبته "!!

كما أشار المؤرخ الشيخ " الجبرتى " إلى مولد السيد ، باعتباره عيداً سنويًا ، يقصده الناس من كل صوب ، ابتغاء التجارة والبركة والتسلية ! وهذا المهرجان الاحتفالى الضخم ، لايقارن به احتفال بمولد آخر فى مصر عامة ، ويبدأ الإعداد لهذا المولد الكبير قبل أسابيع من موعده ..

ويقول على باشا مبارك عن صاحب " الجواهر السنية " : أنه لما توفى السيد البدوى رضى الله عنه " عظموا قبره وبنوا عليه وستروه ، وقام بأمر تلامذته من أصحابه الشيخ عبد المتعال فسموه خليفة السيد ، وعمر بعده طويلاً نحو سبع وخمسين سنة ... وهو صاحب الثوب الأحمر الذى يلبسه الخليفة فى المولد كل سنة ، وهو الذى بنى بمقام سيدى أحمد البدوى المنارة ، ورتب السماط ، وشيد أركان البيت وقصده الناس للزيارة من الأقطار البعيدة "

ويضيف على مبارك فى خططه : " .. وسمعت من بعض المشايخ أن أصل عمل ذلك المولد أن أتباع السيد لما سمعوا بوفاته ، حضروا بأتباعهم إلى طنتدا ليعزّوا فيه خليفته سيدى عبد المتعال ، وكانوا كثيرين جداً متفرقين فى البلاد ، وكانت طنتدا وقتئذ قرية صغيرة لاتسع هذه الجموع ، فضربوا خيامهم خارجها حيث يعمل المولد الكبير ، وأقاموا فى تلك الخيام ثلاثة أيام، ولما أرادوا الرحيل ، شيعهم الشيخ عبد المتعال ، فقالوا له : هذه عادة مستمرة نحضر ههنا كل عام فى هذا المولد فى نفس الميعاد إن شاء الله تعالى إلى ما شاء الله ، واستمرت

هذه العادة فنشأ من ذلك المولد الكبير ، وكان فى الأصل ثلاثة أيام ولم يزل يزداد إلى أن وصل إلى ما هو عليه الآن ، كما أن منشأ ركوب الخليفة فى آخر المولد هو ركوب الشيخ عبد المتعال لتوديع هؤلاء المشايخ ، وأما منشأ المولد الصغير فهو أن الشيخ الشرنبللى أحد مشايخ الطائفة الأحمدية حضر للزيارة مع تلامذته وأتباعه ، فى غير وقت المولد ، فأقام هناك ليالى فى الأذكار والعبادات فاتخذ ذلك عادة كل سنة ، لأن عادة أصحاب الطرق أنهم متى وقع لهم شىء مرة اتخذوه عادة ، لذا كان هذا المولد يعرف فى أول أمره بالمولد الشرنبلالى ، وأما المولد الرجبى فهو منسوب إلى الشيخ الرجبى أحد مشايخ الأحمدية ، حيث بدا له أن يجدد العمامة التى على مقام السيد ، فاتخذ لها مقداراً كافيًا من الشاس المصبوغ باللون الأخضر وحضر به مع جماعته ومريديه ودخلوا طنتدا فى موكب من المشايخ والمريدين والفقراء ، فصار ذلك يعرف بمولد لف العمامة ، وتجدد فيه العمامة كل عام ، فصارت موالده ثلاثة ، وقررت مواعيدها بالشهور القطبية ، رعاية لأوقات النيل والرى ، ولا تتغير مواقيتها إلا بأوامر من الحكومة حسب مقتضيات الصالح .. " .

واستعداداً لهذا المولد الكبير " الذى لا يفوقه فى الاحتفال والجمع غير موسم الحج الشريف " .. يجتمع فى بداية سبتمبر من كل عام " قيادة المولد الأحمدى " المكون من محافظ الغربية، ومديرى الإدارات الحكومية ، وخليفتى السيد البدوى ، وشيخ الجامع الأحمدى من أجل تنسيق دور الأجهزة المحلية فى اتجاهات محددة كتوفير المياه والكهرباء والحفاظ على الصحة العامة ، وتحقيق سيولة المرور ، وتشديد الإجراءات الأمنية والالتزام بالآداب العامة ، وتصدر التوجيهات الرسمية .. وفى النهاية ، يظهر المولد وكأنه أعد دون تخطيط أو تعاون فى سبيل إخراجه ، بل يُذكر أن المولد تم بفضل " كرامات " السيد البدوى !

أما الأثرياء من محبى " أهل الطريق " ومشايخ الطرق ، فيشرعوا فى الاستعداد للمولد ، وتجهيز المؤن اللازمه من لحوم وأرز وشاى وسكر لإطعام الإخوان وعائلاتهم والضيوف .. وإذا لم تمتلك إحدى الطرق سرادقًا خاصًا بها ، فيتم الاتفاق مع محلات " الفراشة " لإعداد سرادق أو خيمة كبيرة ، كما يتم ترتيب نقل الأطعمة وكيفية تجهيزها .

النشاط الاقتصادى :

أبرز مظاهر الإعداد للمولد ، ما يقوم به تجار طنطا ورجال الأعمال من تجهيز للسرادقات مختلفة الأحجام ، وتزيين واجهات المنازل المحيطة بالمسجد الأحمدى ، وأقواس من أقمشة

السرادقات بألوانها المميزة ، تمتد أمام محلات الحلوى إلى عرض الطريق ، مزودة جميعها بمكبرات الصوت الصاخبة ، التى تعلن عن منتجاتها ومحاولات جذب رواد المولد بشتى الوسائل ، وقيام بعض العاملين التابعين لكل محل بالوقوف فى طريق الزوار ، ووضع قليلاً من الحمص الفاخر فى أيديهم - تبركًا - مع الوعد بالشراء عقب إتمام الزيارة !

ويستمر ضجيج الميكروفونات ، وكأننا فى احتفال تنكرى مجنون .. تذيع الأناشيد والمدائح الدينية ، هذا بالإضافة إلى ما يقوم به الباعة المتجولون الذين ينصبون مناضد خشبية ، عليها أكداس من الحمص والحلوى والسكر النبات ، وعلى زائر السيد أن يشترى ، كل حسب قدراته فهى عادة وتقليد مصرى متوارث أن يحمل هذه " البركة " إلى بيته ، وأن يُهدى منها إلى الأحبة المقربين ، وهذه العادة ، هى أصل المثل الشائع " رجع من المولد بلا حمص " !

وأكثر الأطعمة تداولاً فى هذ المولد : الكباب والكفتة ، والسمك المشوى ، طواجن الخضار باللحمة والفول والفلافل ، والكشرى ، والسجق ، والبطاطا ، وكل ذلك يباع فى محلات متخصصة أو على " عربات اليد " .. بالإضافة إلى أطنان من أعواد قصب السكر ، المكدسة على الأرصفة ، والفول السودانى وثمار جوز الهند .

وبالنسبة لسرادقات الصوفية ، فان أبرز الأطعمة هى الشريد أو " الفتة" بلحم الضأن المسلوق ، وهى فرصة رائعة لفقراء الريف لالتهام أكبر قدر من اللحوم ! .. بالإضافة إلى الخضروات المطهية وسقط الذبائح والجبن القديم (المش) والبيض والقراقيش .

أما أهم المشروبات ، فهى الشاى والمياه الغازية والقهوة والقرفة والكركديه وعصير القصب و " البوظة " !

وبخلاف الأطعمة والأشربة ، تنتشر محال بيع الأدوات المنزلية ، من النحاس والألومنيوم والبلاستيك ، وتجارة لعب الأطفال والطراطير والطبول والبخور والحلى المقلدة وشرائط المدائح والذكر والعطور زهيدة الثمن والمياه الغازية .. كما يعتبر سكان الريف أن فترة المولد هى خير الأوقات وأنسبها لإجراء ختان الأولاد ، و " البركة " تشمل جميع حالات البيع والشراء !

حضور المولد من مظاهر التقوى !

تنازع العلماء أمر " الموالد " بين التحليل والتحريم ، والتحفظ والإنكار ، فهى ليست من الدين الذى أكمله الله لنا ، وتتنافى مع ما أمرنا باتباع الرسول فيه ، والحق يستدل عليه

بالبراهين الشرعية ، والموالد " بدعة " لاتخلوا من المنكرات والآثام ، وعودة إلى مظاهر الوثنية وتقديس الأشخاص !

والبعض يرى فى زيارات الأضرحة وحضور الموالد ، أنها من مظاهر التقوى والطاعة ، بينما يذهب بعض غلاة المتصوفة إلى أنها فرض مقدس !

والتخلف عن حضور مولد السيد البدوى ، يجلب سخطه وغضبه على مريديه وأتباعه ، وتتوارد الحكايات عن أناس تقاعسوا عن حضور المولد ، فما كان من السيد البدوى إلا زيارتهم وعتابهم أو عقابهم !

ويروى عن الإمام " الشعرانى " أنه لم يرغب ذات سنة فى الذهاب إلى المولد ، فجاءه السيد البدوى فى المنام :

" .. كان يحمل عصا ، جريدة نخل خضراء ، يستدعى الناس من كل أنحاء العموره ، فيتوافدون من خلفه وعن يمينه وعن شماله ، أمم لاتعد ولا تحصى ، ومر الموكب أمامى ، وسألنى السيد أحمد البدوى : هل ستأتى معنا ؟ فأجبت بأنى مريض ، فقال : المرض لايمنع المريد الحق من الحضور ، وأرانى حشداً من الأولياء ، الأحياء منهم والأموات ، جميعهم ذاهب معه إلى المولد ، ثم أرانى جمعًا من أمراء الفرنجة ، مصفدين فى الأغلال ، زاحفين على أردافهم فقوى ذلك عزيمتى للذهاب ، وقلت له : إن شاء الله سأحضر ، فقال :

ينبغى أن يكون لديك شىء يؤكد عزمك على المجىء ، ثم عيّن علىّ أسدين يحاكيان الأفيال ضخامة وقتامة ، قائلاً لهما : لاتدعانه حتى تُسلمانه " !

وهذه القصة ، ليست فقط حجة فى حضور المولد ، حتى لأمراء الفرنجة الأذلاء المقيدين فى الأصفاد ، وإنما يمكن اعتبارها أيضًا " دعاية طيبة " لإظهار تفوق الطريقة الأحمدية على نظائرها ، وما للسيد البدوى من تأثير عظيم ومكانة رفيعة ، تجعل سائر الأولياء يحتشدون لشهود مولده !

ساحة الجامع الأحمدى :

ضريح السيد البدوى ومسجده ، يشهدان نشاطًا مكثفًا قبل المولد وخلاله فتزين ساحة الجامع والميدان بأعلام ورايات الطرق الصوفية ، وبالسرادقات الضخمة ، وتعقد حلقات الذكر عقب صلاة العشاء ، وطوفان الزوار لاينقطع وحركتهم الهادرة لاتهدأ .. رجال ونساء وأطفال

يتدافعون نحو ضريح السيد وصيحات يتجاوب معها الجميع : " مدد يا شيخ العرب .. يا سيد " و " إسعى وصلى على النبى " و " المدد .. يا أهل المدد " و " شى الله يا سيد .. نظره " ! ومنهم من يتشبث بالضريح ، معانقًا ومقبلاً ، ومن لم يستطع الوصول إليه ، يقف ملوحًا بيديه، متمتمًا بالدعاء وقراءة الفاتحة ، ومنهم من يخر مقبلا عتبات الضريح ، ومن الرجال من يخلع شاله ويربطه فى المقصوره ، والبعض يكتفى بلمس المقصورة ثم يمسح بيديه على وجهه وصدره ، والجميع فى حالة من النشوة والوجد !

ويحظى الحجر الموضوع فى الركن الشمالى الشرقى ، باهتمام الزوار ، فالجميع يحاولون لمسه جلبًا للبركة ، وهو من الصخر وعليه آثار قدم غائرة يقال أنها قدم النبى !

وفى الليالى الأخيرة للمولد ، يصل الزحام إلى ذروته ، داخل الجامع والساحة والميدان والشوارع المحيطة به ، ومحاولة النفاذ إلى الضريح بين هذه الأمواج البشرية الهائلة هو ضرب من المستحيل !

آلاف من عائلات المريدين والمحبين ، افترشت الأرض بالبطاطين ومفارش قديمة وحُصر وسلال الطعام ومواقد الكيروسين وبرادات الشاى ، والمساجد المجاورة فتحت أبوابها لـ "ضيوف السيد " .. والحى العتيق يغص بالزوار ، فى الشوارع الضيقة والأزقة والحارات ، وفى بعض الأحيان ، يتخذ بعض الزوار مجرد ساتر من الأقمشة ، مثبت على قوائم خشبية خفيفة ، والبعض يفترش حصيرة ويلتحف ببطانية ، ويجلسون عائلات ومجموعات يحتسون الشاى ويدخنون الجوزة أو الشيشة ، بينما تنتشر حلقات الذكر فى كل ركن ، وبعض الزوار يقيمون فى مساكن أقاربهم أو أصدقاءهم . وكبار التجار يستضيفون أثرياء الريف ، الذين يأتون ومعهم الخيرات من خراف نذرت لمولد السيد ، وفواكه وغلال ، وقد يدعون بعض الفقراء فى ولائمهم ليشاركونهم طيبات ما رزقهم الله ، وفى شارع البحر ، قلب المدينة ، منتزه كبير خصص جزء منه لتقديم عروض السيرك القومى ، ومعرض صناعى تجارى ، ومسرح لتقديم عروض الفرق الفنية الإقليمية ، عن الحياة فى مصر زمن السيد البدوى ، أو تتناول سيرته الذاتية باعتباره رائداً وطنيًا !

المولد فى " سيجر " :

وهى منطقة مفتوحة تفصل بين المدينة والقرى ، تضم مساكن خاصة وأملاك لوزارة الأوقاف، مخصصة للسيد البدوى ، ويشق المنطقة الزراعية ، طريق ترابى يربط الريف بمدينة

طنطا ، طوله نحو نصف الكيلو مترا ، يحتله طوال المولد : الباعة المتجولون يعرضون الحمص والحلوى ولعب الأطفال ، وألعاب الحظ والرماية وعروض الألعاب السحرية ، وفرق الإنشاد الدينى ، واستعراضات راكبى الدراجات البخارية ، وللأطفال المراجيح وصندوق الدنيا ، وباعة الأطعمة ، والسلال ، والأوانى الفخارية ، والمصنوعات الجلدية والحلى المقلدة ، وبعض الباعة من نفس المنطقة أو ما حولها ، والآخرين أتوا من أقاصى الصعيد وبعض محافظات الدلتا ، وعندما ينفض المولد ، يشدون الرحال إلى دسوق ومولد سيدى إبراهيم الدسوقى !

وإلى الغرب من طريق سيجر ، أرض زراعية يطلق عليها الساحة أو الملأة ومع بداية الأسبوع الثانى للمولد ، تحاط بالسرادقات الضخمة المزينة بالأعلام والبيارق ، وفى بعضها ساتر من قماش الخيام ، يفصلها إلى قسمين ، ويخصص قسم منه للنساء وإعداد الطعام ، وتزود بمصابيح كهربائية ومكبرات للصوت . وتقوم البلدية بتجهيز المولدات الكهربائية الضخمة المتنقلة ، بالإضافة إلى الخيام الصغيرة ، التى تنصب كل عام فى نفس المكان ، بحكم " العادة " مرتبة على هيئة مربع ناقص ضلع ، فى مواجهة الشرق ، وينصب أمامها " سارى " السيد البدوى ، الذى تروى عنه حكايات ، منها أن النبى صلى الله عليه وسلم - والسيد البدوى يزوران الساحة ، فى الليلة الختامية للمولد ، ويشاركون المريدين فى أذكارهم ، فيهتز السارى وينحنى فى تلك اللحظات ! ويروى أيضًا أن جميع الأولياء ، فى تلك الليلة ، يجتمعون حول هذا السارى ، مشاركين الأتباع والأحبة فى حلقات الذكر ، لتشمل البركة الجميع !

وأكبر السرادقات فى الساحة هو المخصص لمديرية أوقاف الغربية ، وفيه تتم مراسم ختام المولد فى الليلة الكبيرة ، ويبلغ عدد الطرق الأحمدية إثنين وعشرين طريقه ، أربعة عشر طريقة منها هى المعترف بها من المجلس الأعلى للطرق الصوفية ، وهى التى يخصص لها "خيام الخدمة " .. وهذا لايمنع باقى الطرق الأحمدية - التى هى أشبه بمجموعات أو روابط صوفية محلية - من تقديم الخدمات تجاه " الأخوة " والضيوف .

" شيخ السجادة " يتصدر السرادق ، جالسًا على كرسى وثير نسبيًا ، يحيط به نوابه ، مشاهداً وموجهًا للذكر الذى يؤدى أمامه ، مستقبلاً لوفود الأتباع والمريدين ، يتقدمون فرادى لتحيته وتقبيل يده ، والبعض يقدم إليه هدايا رمزية مثل الهبات المالية وزجاجات العطر وخراطيش السجاير ، وقد يأتى بعض المريدين بأصدقائهم ليعرفوهم بالشيخ ، وهى مناسبة

لتجديد العهد ، وتتيح للمريد أن يلتقى شيخ الطريقة وينال البركة ، وجهًا لوجه ويداً بيد ، دون وساطة نائب الطريقة ، وعلى حسب مقدار الحفاوة وكرم الضيافة ، يمكن جذب وضم أعضاء جدد ، ولابد أن يتمتع شيخ السجادة بسمات الرهبة وقوة النفاذ إلى قلوب أتباعه ، وليس لأحدهم أن يرفع رأسه أو يتحرك دون إشارة من الشيخ ، المرشح أن يدفن عقب موته كـ "ولى" ويصبح قبره مزاراً ، وينشر بركاته على أنحاء قريته وما يجاورها ، وتروى عن كراماته الأساطير !

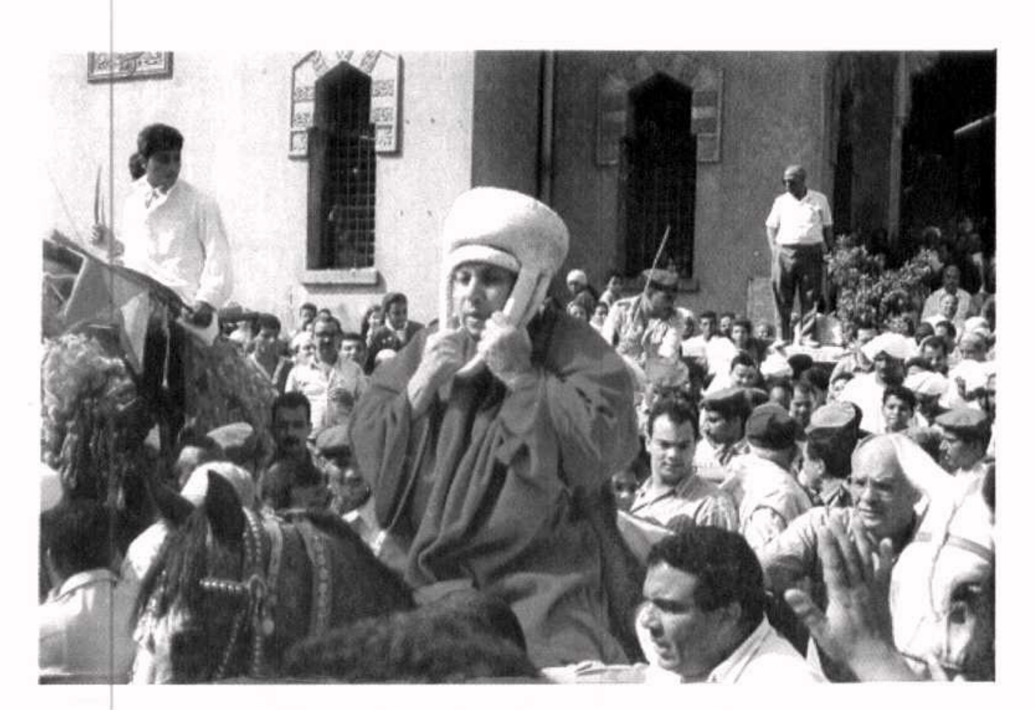
موكب الشناوية أو " ركبة الحماره" !

فى اليوم الأخير من المولد ، عقب صلاة العصر من يوم الخميس ، يبدأ الموكب من أمام الجامع الأحمدى ، يقوده خليفة السيد البدوى ممتطيًا جواده ، وسط مجموعة من ضاربى الدفوف على ظهور الجمال ، وفرقة حرس شرف عسكرية ، ومجموعات من الطرق الأحمدية ، حاملة الأعلام والبيارق ، متجهين جميعاً إلى جسر سمنود حيث موقع المدخل القديم لمدينة طنطا ، وهناك ينتظرون وفد الطريقة الشناوية القادم لتحية وفد الخليفة .

وهذا اللقاء ، أصبح تقليداً متبعًا لإحياء ذكرى حدث قديم ، فقد عزم مؤسس الطريقة الشناوية الشيخ " محمد الشناوى " على السفر إلى طنطا ، وإعلان ولاءه لسيدى " عبد المتعال" أول خليفه للسيد البدوى ، فامتطى حماره فى سفره هذا ، وفى كل عام ، يقود خليفة الشناوية موكبهم ، فيطوف بقرى طنطا أولاً ، ثم يتجه إلى مكان اللقاء ، وعندما يظهر خليفة السيد البدوى ، يبادر خليفة الشناوية فيخلع عمامته تقديراً وتوقيراً ، حيث تواترت الحكايات بأن الشيخ محمد الشناوى قد فعل ذلك ، ويصطحب خليفة البدوى ، خليفة الشناوى ، لأداء صلاة المغرب بالجامع الأحمدى ، ثم زيارة ضريح السيد البدوى .

موكب الخليفة :

فى اليوم التالى - الجمعة - يكون الموعد مع أهم أحداث وختام هذا المهرجان السنوى ، فعقب أداء صلاة الجمعة ، تحتشد الشوارع والميادين والشرفات وأسطح المنازل ، بالزوار وأهالى طنطا ، فى أضخم تجمع شعبى بالمدينة ، على مدار العام ، لمشاهدة " زفة " أو موكب خليفة السيد البدوى ، ويبدأ من أمام مسجد " محمد البهى " حيث الخليفة يؤدى صلاة الجمعة، سيارات نصف نقل تابعة للمحافظة و " قيادة المولد الأحمدى " مزدانة بالورود



مشاهد من موكب «خليفة السيد البدوى» فى ختام المولد



«زفة المولد» بمدينة بورسعيد





مشاهد من النشاط التجاري بمولد السيد البدوى

واللافتات ، تنتظر بالقرب من مدخل المسجد ، وما أن يهل الخليفة من الداخل ، حتى يندفع إليه الألاف من الزوار والمريدين يلتمسون بركته .. فيختلطون بفرقة من الخيالة والأمن المركزى وبصعوبة شديدة يمتطى حصانا مسرجًا ، بنى اللون بغرة بيضاء ، الخليفة فى أبهى زينة ، مرتديًا عمامة السيد البدوى البيضاء ، والعباءة الحمراء لسيدى عبد المتعال ، ثم تبع الخليفة جملين تزينهما سروج باللونين الأحمر والدهبى ، عليهما غلامين يرتديان الجلباب الأبيض يقرعان طبولا نحاسية ضخمة ، ويتحرك الموكب وئيداً ، يتقدمه فرقة من الفرسان ، وقائد الموكب برتبة " عميد " على دراجة بخارية ، وفرقة من المشاة والأمن المركزى ، سيارات مزدانة تمثل طوائف الحرفيين ، وجماعات الصوفية وعلى رأسهم " الرفاعية " بالرايات والأعلام السوداء و " القادرية " بالرايات الخضراء ، بما يفسر على أنه تأكيد للعلاقة التاريخية التى تربط السيد البدوى بأقطاب العراق .

ويخترق الموكب شارع السوق المواجه لمسجد البهى .. ويمضى وسط موجات هستيريه من الفرح والبهجة الطاغية ، ويتسابق الجميع للحاق بركب الخليفة من شارع إلى شارع ، وينتظم الموكب بشارع " الجمهورية " .. شرفات المساكن تغص بالمشاهدين ، يلقون بالملح والحمص على الموكب ، شباب يستعرضون مهاراتهم فى اللعب بالسنج والسيوف ! .. وعجوز مجذوبة بجلباب أبيض تندفع إلى مقدمة الموكب ، فلا يعترضها أحد ، وتمضى متواجدة فرحة تتمايل منشدة ، وما بين زغاريد النساء والصياح والغناء والإنشاد ، وراقصى التنورة وحاملى البيارق وقارعى الطبول والدفوف والصاجات .. يعم ضجيج مبهج .. فى مشهد كله فرحة غامرة ، ينتظره الجميع – بكل الشوق – فى العام التالى !

مولد أبو الحسن الشاذلى

كان " القاسم بن يوسف التجيبى السبتى " أول رحالة عربى يسجل زيارته لقبر العارف بالله " أبو الحسن الشاذلى " .. وهو فى طريقه إلى الحج ، فى رجب سنة ٦٩٦ هـ / مايو ١٢٩٧م .

ويقول التجيبى : " ونزلنا على ماء فى بئر تدعى حميثرا ، وبازاء هذه البئر قبر الرجل الصالح ، الإمام العارف أبى الحسن الشاذلى ، قصد الحج فتوفى بهذا الموضع يرحمه الله ... وأهل القوافل يقصدون هذا القبر للزيارة ، ويرون أن الدعاء عنده مستجاب " .

كما كتب عنه الرحالة الأشهر " ابن بطوطة " .. وبعض الرحالة الأجانب الذين اجتازوا الصحراء الشرقية ، مع القرن التاسع عشر ، منهم المستشرق السويسرى " بوركهارت " فى عام ١٨١٤ ، والبريطانى " چون بول " عام ١٩٠٥ ، والذى وصفه بقوله : " أهم المزارات فى تلك المنطقة * ، بالقرب من جبل أبو حماميد ، وهو حسن البناء ، تعلوه عدة قباب ، ويقيم فيه نقيب مغربى ، وعربان العبابدة يزورون هذا الضريح سنويًا " .

فى عام ١٩٧٢ ، أهدى الرئيس الراحل السادات مقصورة جديدة للضريح صنعت بدار الكسوة الشريفة بالقاهرة ، وفى عام ١٩٧٩ ، أعدت وزارة الأوقاف مشروعًا لتوسعة الضريح وتجديده ، حتى تحول إلى مركز إسلامى هام بالمنطقة الجنوبية الغربية من صحراء البحر الأحمر، وألحقت به مكتبة ضخمة ومعهد أزهرى ، والإمام الشاذلى ، قطب الأولياء ، وإمام الأصفياء " الغوث . الجامع الربانى ، صاحب الأسرار العلية والحقائق القدسية والأنوار المحمدية ، أستاذ الأكابر ، والمتفرد فى زمانه بالمعارف السنية والمفاخر " ولد سنة ٥٥١ هـ / ١١٩٧ بقرية "غمارة " بالقرب من مدينة " سبته " على مضيق جبل طارق ثم انتقل إلى مدينة تونس ، وتوجه منها إلى بلاد المغرب والمشرق ، وحج عدة مرات .

ويقول " مؤمن الشبلنجى " صاحب " نور الأبصار فى مناقب آل بيت النبى المختار " عن الإمام الشاذلى ، أنه قدم الاسكندرية من المغرب وصار يلازم ثغرها من الفجر إلى الغروب و.." كان إذا ركب تمشى أكابر الفقراء والدنيا حوله ، وتنشر الأعلام على رأسه ، وتضرب الكاسات بين يديه ، ويأمر النقيب أن ينادى أمامه : من أراد القطب الغوث فعليه بالشاذلى".

وكان - رضى الله عنه - يقول " إذا عرضت لك حاجة إلى الله ، فأقسم على الله بى " وقال تلميذه أبوالعباس المرسى " والله ما ذكرته فى شدة إلاّ انفرجت ولا فى أمر صعب إلا هان" ..

وواظب على حضور مجلسه بالمدرسة الكاملية بالقاهرة ، نخبة من أشهر علماء ذلك العصر : عز الدين بن عبد السلام ، ابن الحاجب ، إبن دقيق العبيد إبن الصلاح ، إبن عصفور ، وعبد العظيم المنذورى وغيرهم .

وفروع الطريقة الشاذلية ، تتجاوز المائة ، تحمل فى معظمها أسماء العائلات التى تباشر الدعوة إلى الطريقة ، فى المناطق التى نشأت بها ، منها البرهامية الشاذلية ، القادرية ، الطماوية ، العقادية ، الدندراوية ، الناغية ، الشبراوية ، الخفاجية ... وأشهرها جميعًا " الحامدية الشاذلية " وأكثرهم تنظيمًا ، ومركزها حى بولاق ، بمسجد سيدى " سلامة الراضى " مؤسس الطريقة ، وجامع الحامدية الشاذلية بسور نادى الزمالك ، ، وهم الأكثر ظهوراً فى مولد " السلطان أبى العلاء " .. ومولد " أبو العباس المرسى " بالإسكندرية " مع انتشار هائل للطريقة الشاذلية فى كثير من البلاد الإسلامية ، خاصة شمال أفريقيا .

فى وقفة عرفات ، من كل عام ، يتوافد أحباء الشاذلى وأتباعه ، من جميع المهن والطبقات ، قاصدين مقام الشيخ فى " حميثرا " التى كانت محطة للقوافل على طريق الحج القديم ، تكاد تختفى الإبل والحمير ، فقد حلت محلها السيارات بأنواعها ، تغص بالأحباب ، والأشواق ، والذبائح والدقيق والحلوى والكساوى ، وتمتلىء الساحة المحيطة بالمسجد وسفح الجبل ، بخيام الزائرين ، حلقات الذكر تشتد حول الضريح ، والأضحية تذبح على جدرانه ، والمقام مغطى بالرسائل التى تحمل الأمانى وطلب الشفاعة ، وصور شخصية وهدايا ، ولوحات قرآنية .

وعلى امتداد الطريق الطويل المؤدى إلى المسجد ، تطالعنا على الجانبين ، حوانيت صغيرة لبيع الملابس الملونة ، وأدوات الزينة ، والأدوات المنزلية ولعب الأطفال .. وخيام متناثرة لألعاب الحواة والسيرك ..

وأبرز ظاهرة هى : الطواف بكسوة المقام ، ويحرص الجميع على شهوده ، طيات من الحرير الأخضر ، يمسك بأطرافها عدد من شباب المريدين ، يطوفون بها أرجاء الساحة ، فى موكب صاخب ، مرددين كلمات التكبير والتوحيد والصلاة على رسول الله . بينما الكسوه تتماوج فوق الرؤوس ، إلى أن يصلوا إلي المقام ، وتسلم إلى سدنة الضريح .

العارف بالله الشيخ أحمد رضوان

أشهر أولياء صعيد مصر فى هذا العصر ، ولد بقرية " البغدادى " مركز الأقصر ، فى عام١٣١٥ هـ / ١٨٩٥ ، نشأ فى أسرة ثرية محافظة ينتهى نسبها إلى الإمام الحسن - رضى الله عنه - سبط رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، حفظ القرآن وتلقى علوم الشريعة فى سن مبكرة ، فى الثانية عشرة من عمره ، إعتزل الناس للمرة الأولى ، فى إحدى غرف منزل أبيه لنحو شهرين ..

انضم إلى الطريقة " الخلوتية " وتأثر كثيراً بالشيخ أبى الوفا الشرقاوى ونخبة من رجال التصوف المشهود لهم بالفضل والتقوى ، وقد مرّ الشيخ بثلاثة مراحل مضنية حتى نال درجة " الولاية " .. استغرقت المرحلة الأولى نحو أربع سنوات ، لم يعرف فيها طعمًا للراحة ، وتميز مزاجه بالتناقض الحاد، ثم بدأ يحرر ذاته من منطق البشر "كيف" و "لماذا" و .. "أين" .. ! ووهب نفسه كاملة لمحبة الله والإخلاص فى طاعته ، وتلقى إشارات نورانية سمت بروحه ، وفى بعض الحالات كان ينزع عنه ثيابه وأحيانا كان يستطيع التحدث إلى الناس ، وأحيانًا أخرى ، لايتحمل مجرد وجودهم وقضى فى " وجده " فترات طويلة واقفًا أو جالسًا صامتًا ، ذاهلاً عما حوله ، باكيًا منتحبًا ، قليل النوم ، وبدأ بعض العارفين التقرب إليه ، ويقول الشيخ : " بعض الناس يحسبون أن بلوغ مرتبة - الولاية - أمر يسير ، وهذا خطأ ، فاذا أردت هذه المرتبة ، عليك أن تخضع نفسك للإختبار ، وتعانى حتى تستمتع ، وترضى بالمصائب التى قسمها الله لك " .

وفى المرحلة الثانية ، بدأ يتحدث السريانية ، والمعتقد أنها لغة كبار الأولياء ، وتسمع الشيخ ينادى الأولياء فى جميع أركان الدنيا ، ويتلقى منهم أنباء سرعان ما تتأكد فى الصحف ، وكان يصف أحوال من انتقلوا إلى الدار الآخرة .

وفى المرحلة الثالثة . عاد الشيخ إلى أهله ، وقد استقر طبعه فأنشا " معهد رضوان " .. وبدأ نشر حكمته وتعاليمه بين أصدقائه وأتباعه ، وتفسير آيات من القرآن الكريم بطريق "الإلهام " .. قائلاً " إننى أنطق بما يتجلى فى قلبى ولا شىء سوى ذلك " .. وتحلى الشيخ بادراك ثاقب وبصيرة نافذة ، فكان يعرف أسماء الناس ومشاكلهم أو رغباتهم بمجرد دخولهم عليه !

فى إحدى جلساته ، قال الشيخ : " لقد مرَّ علىَّ وقت كنت فيه فى غاية الشوق لرؤية الأولياء ، والآن ، فاننى أراهم أجمعين ، الذين ما زالوا على قيد الحياة ، وأولئك الذين توفاهم الله .. وأقسم بالله أن نصرانيًا أصبح اليوم - وليًا - القلب مكروب هذه الأيام .. ولن يمكننى أن أذكر لكم كل ما أسمع وأرى .. " !

وسيرة الشيخ تزخر بالمعجزات المصنفة تحت اسم " طبيعة الخواطر " وهى نوع من الإخبار بالغيب .. منها أن الشيخ كان مع مريديه ، على مأدبة غذاء فى قنا ، فاستبدت به حالة عجيبة ، وتوقف الحاضرون وأطرقوا صامتين ، إلى أن هدأ الشيخ ثم واصل طعامه ، قائلاً : "إن ابنة الأخ الحاج محمود عبد الوهاب ، قد وضعت مولوداً فى الإسماعلية ، وعانت كثيراً ، فلم أستطع تناول أى شىء حتى يريحها الله مما هى فيه ، والحمد لله تيسرت الأمور وتمت الولادة ، وأعطاها الله ولداً " .. ووصف المولود وصفًا دقيقًا ، وكان والدها الحاج محمود ، مأذون الناحية ، حاضراً لتلك المأدبة ، ومن علماء الشريعة المشهود لهم بالتقوى والصلاح ، وبعد ساعات وصلت إليه برقية تهنئة بالمولد " الحفيد " .. !

وفى حالات كثيرة ، عندما كان الشيخ يرى الرسول فى منامه ، يبادر باخبار المريض بأنه سيشفى ويبارك الله فى عمره ، وكان من أتباع الشيخ أحد محبيه " إسماعيل حسن " قد استبد به القلق واستولى عليه همّ كبير بسبب أخيه " هريدى " الذى كان طريح الفراش فى حال خطر بمستشفى الأقصر ، فقال له الشيخ رضوان : " إن لأخيك عشرين عامًا أخرى يحياها ، إذهب وأنبئه بالخبر ، ولا تخشى الناس فيما يقولون .. فالذى يعلم الأسرار الإلهيه هو الذى ألهمنى " ! .. وحدث بالفعل ما قال به الشيخ !

وتواترت الحكايات عن العلاقة الحميمة التى كانت تربط الشيخ رضوان بالرئيس الراحل جمال عبد الناصر ، وعن اعتقاد الرئيس فى منزلة الشيخ واحتفاء به ، وتذكر إحدى الروايات، أنَ عبد الناصر أرسل سكرتيره الخاص ، عام ١٩٦٦ ، لترتيب زيارة للشيخ ، لكنه أبى أن يأتى عبد الناصر لزيارته ، قائلاً : " أفضل لو أننى أصبحت الضيف ، بدلاً من المضيف ، حتى يمكننى أن أسدى إليه النصيحة كاملة دون حرج " !

ويروى تلاميذ الشيخ حكايات عن زيارة أخرى للرئيس ، إبان الأزمة التى مهدت لكارثة يونيو ١٩٦٧ ، حاول فيها الشيخ ، أن يثنى الرئيس عن خوض غمار الحرب ، مؤكداً له أن مستقبله السياسى يخلو تمامًا من بشرى للنصر ! .. لكن الرئيس أصر على موقفه .. عندئذ

أعلن الشيخ عن أمله فى أن لايشهد الهزيمة المتوقعة ! .. وقفل عائداً إلى قريته ، وتشاء القدرة الإلهية أن تقبض روحه فى الرابع من يونيو .. أى قبيل نشوب الحرب المأساوية بيوم واحد.. !!

العارف بالله " أبو الحجاج الأقصرى "

هو العارف بالله السيد يوسف بن عبد الرحيم بن غزى بن عيسى الزاهد وينتهى نسبه الشريف إلى الإمام الحسين بن الإمام على بن أبى طالب - رضى الله عنهما - ويكنى " أبى الحجاج الأقصرى " ..

ولد بمدينة بغداد ، حاضرة الخلافة العباسية ، فى منتصف القرن السادس الهجرى ، نشأ فى أسرة اشتهرت بالتقوى والورع ، وحفظ القرآن فى سن مبكرة ، ونال قسطًا من التعليم والثقافة الدينية تحت رعاية والده ، ثم امتهن صناعة غزل الصوف وحياكته ، حتى نال شهرة فى هذا المجال ، وظل يتردد على حلقات الوعظ والفقه ، التى اشتهرت بها بغداد فى ذلك العصر ، وكان يعقدها كبار الأئمة وأقطاب التصوف ، وتفقه بالمدرسة النظامية على مذهب الإمام الشافعى ، ونهل من علوم الحديث والشريعة والتصوف ..

ورحل أبو الحجاج ، وهو على مشارف الأربعين من عمره ، إلى مكة المكرمة ، بصحبة أنجاله الأربعة وبعض من أهله وصحبه ، ثم رحلوا إلى المدينة المنورة ، ومنها إلى مصر ، حتى استقر به المقام فى مدينة الأقصر ، فى نهاية حكم السلطان صلاح الدين الأيوبى .

ويتوارث أهل صعيد مصر قصته الشهيرة مع الراهبة " تريزة " صاحبة النفوذ والسلطان قبل مجيئه ، وطلبه أن تسمح له بامتلاك قطعة أرض بالمدينة ، بمقدار اتساع جلد جمل ! .. ومناقب هذا القطب أكثر من أن تحصى ، أبرزها أنه استطاع بتأييد من الله تبارك وتعالى ، أن يغير وجه الحياة فى هذه المدينة التى كانت أكبر معاقل العبادات الكهنونية !

مشاهد من مولد أبى الحجاج :

تتوالى الاحتفالات بالمولد فى مدينة وقرى الأقصر ، مع نهاية شهر صفر حتى نهاية ربيع الأول ، وبشكل متميز يعكس بوضوح الواقع الاجتماعى والاقتصادى للريف فى صعيد مصر، تأكيداً لشخصية كل قرية ونجع .. فأهالى القرنة بالبر الغربى يحتفلون بمولد " الشيخ الطيب".. وأهل المنشاة يحتفلون بمولد الشيخ " على الخلوتى " وأهل الكرنك بمولد " الشيخ موسى " ومولد " أبو الجود " والجواهره بمولد الشيخ " أبو الحلى " .. والبعيرات بمولد "

أبوالقمصان " ومولد " أبو زعبوط " .. وأهل الزينية والبياضية يحتفلون بمولد سيدى " أحمد بن إدريس " ونجع الخطبا بمولد الشيخ " أبو العلا " .. كذلك يحتفل أهل الكرنك بمولد العارف بالله "يوسف الحجاجى " إمام الطريقة الخلوتية بصعيد مصر .

وفى ذكرى المولد النبوى ، تتسابق كل القرى والنجوع فى مظاهر الاحتفالات ، فتشيد السرادقات فى الشوارع والميادين ، وترتفع رايات وأعلام الصوفية ، وتنتشر مكبرات الصوت، ومواكب سيارات الحرفيين المزدانة بالزهور والأعلام ، وموكب عربات الحنطور تتهادى بفرحة السائحين ودهشتهم ، وما بين زغاريد النساء وأصوات المزمار وأنغام الربابة وشدو المنشدين ، تنهال من الشرفات قطع الحلوى والفول السودانى ، إحساس بالبهجة والنشوة يغمر الجميع .. وفى المساجد ، عقب صلاة العشاء ، تتلى آيات القرآن الكريم ، وتعقد حلقات الذكر والإنشاد الدينى .. بينما يترقب الشباب والأطفال والنساء كل ليلة مرور " الدوره " التى يتقدمها الفرسان وحملة الرايات وضاربو الطبول والدفوف .

ومولد سيدى أبى الحجاج تتفاعل فيه مشاعر أهل الصعيد ، وتتجلى فيه مظاهر الحفاوة والكرم ، وقد جرت العادة على الاحتفال به فى ليلة النصف من شعبان حتى أصبح تقليداً هامًا وحدثًا عظيمًا .. وأهم ظاهرة فى يوم الاحتفال : تلك المراكب التى يجرها جموع المريدين ، بين مظاهر التكبير والتهليل ، مما يلقى بظلاله بما كان يحدث فى المهرجانات الدينية فى عصور الفراعنة ، فطبقًا لوثائق مصر القديمة ، فى عصر رمسيس الثالث ،كانت الاحتفالات تشغل ١٦٢ يومًا من السنة ، وكان لمعظم الآلهة عدد من القوارب ، التى تلعب دوراً رئيسيًا فى طقوس الاحتفالات الدينية ، فقارب الإله " يعلو بجماله ، ويغرس فيه الحياة المتجددة " .. وفى مهرجان " أوبت " كانت المراكب تخرج من معبد الأقصر ، فى احتفال دينى مهيب ، تتهادى على صفحة النيل بين أدخنة المباخر والصلوات والدعوات ، حتى تصل إلى مرسى طريق الكباش ، فتحمل إلى قدس الأقداس بمعبد الكرنك ، وكان القارب الأكبر للإله "آمون".. ثم واحد لزوجه " موت " والآخر لابنه " خنسو " .

ويستمر هذا التقليد المتوارث فى مولد أبى الحجاج ، وضريحه داخل معبد الأقصر كما يتماثل هذا التقليد فى مولد سيدى " عبد الرحيم القنائي " أيضًا .. على الرغم من تأكيد أهالى الأقصر على أن هذه القوارب مرتبطة بمجىء أبو الحجاج من مكة ، أو بحجه إليها .. !

وظاهرة أخرى يتميز بها مولد أبو الحجاج وهى " المرماح " .. فعقب صلاة العصر تحتشد الساحة - بجوار معبد الأقصر - بالفرسان من كل القرى والنجوع ، وخيولهم ذات السروج المزركشة ، ويبدأ بلعبة " التحطيب " التى يجيدها ويعشقها أهل الصعيد ، ثم الاستمتاع برقص الخيول على المزمار والربابة ويستعرض كل فارس مهارته فى الفروسية والرمح بالحصان والإتيان بحركات صعبة ، تستحوذ إعجاب المشاهدين ، كذلك لعبة ،" الطردة " وهى مبارزة بالعصى والخيزران من فوق ظهور الجياد ثم يبدأ سباق الخيل ويستمر حتى أذان المغرب .

وتتوالى ليالى الاحتفالات فى دواوين العائلات ، وفى السرادقات ، وتنحر الذبائح ومظاهر الحفاوة والكرم تشمل جميع الوافدين ، ويبرز المنشدون مواهبهم فى مدح الرسول وأهل بيت النبوه ، وفى مناقب أولياء الأقصر ، وفى سرد القصص الدينية والحنين لأرض الحجاز .

الموالد المسيحية واليهودية

يوجد تشابه كبير بين المعتقدات الإسلامية ، والمعتقدات المسيحية بالنسبة للأولياء والقديسين ، والكرامات والمعجزات التى تنسب لكل فريق ، ومظاهر التقديس والاحتفالات الدينية ، تضرب بجذورها فى الإرث الحضارى المصرى القديم لكل من الأقباط والمسلمين .

وتنحصر مرتبة " القداسة " لدى الكنيسة المصرية فى الشهداء والرهبان ، والسلطة المركزية للأقباط ، الممثلة فى بابا الأسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية ، له وحده حق التصديق على إعلان القديسين الجدد ، وتوجد قاعدة لها استثناء واحد فقط فيما يخص البابوات ، وهى أن القديس لايدرج فى قائمة القديسين " السينكساريوم " إلا بعد مضى خمسين عامًا من تاريخ انتقاله إلى " الأمجاد السماوية " .. فاذا تم تصديق الباب على قداسته ، طبقًا للقواعد الثابتة ، يعلن ذلك بين جماهير الأقباط فى جميع أنحاء البلاد وتوضع رفاته باحدى الكنائس، حتى يمكن للمؤمنين المسح بايديهم على صندوق الرفات فينالوا البركة المنشودة !

وتجدر الإشارة إلى أن معظم القديسين القدامى ، قد لقو حتفهم شهداء إبان الاضطهاد الرومانى للمسيحية ، تحت حكم ثلاثة من الأباطرة الرومان :

" ديسيوس - ٢٤٩ : ٢٥١ " و " دقلديانوس - ٢٨٥ : ٣٠٥ " و " جوليان - ٣٦١ : ٣٦٣ " وأصبح للكنيسة تقويم خاص يعرف بـ " تقويم الشهداد " ويبدأ من ٢٩ أغسطس سنة ٢٨٤ م ، وكان من المتبع ، أن المسيحى الذى يدلى باعتراف عن حقيقة عقيدته ، أمام الحاكم الرومانى ، معرضًا نفسه - طواعية - لكل صنوف التعذيب ثم القتل : يعد قديسًا !

وقد تطور الاعتقاد فى الشهداء ، والاهتمام برفاتهم ومراقبة الأعياد السنوية لهم ، باعتبارهم أبطالاً ناضلوا وبذلوا دماءهم فى عهود الوثنية .. وقد انتقد الراهب المصلح " شنودة " أهمية الاعتقاد فى الشهداء وتقديسهم ، وكان ذلك إبان القرن الخامس الميلادى ، حيث أصبح " لكل قرية مزار لشهيد يحوى عظامًا لبعض الموتى المجهولين ، أخرجت من القبور ، ومنحت كل التبجيل والاحترام، دون أدنى دليل يثبت أنها -على الأقل- بقايا مسيحيين"!.. ويخلع على هذه الرفات أسماء وألقاب لائقة ، وفى حالات كثيرة كان المرجع الوحيد فى هذا الشأن " حلم " أو " رؤية " لكاهن أو راهب ، وهو ما كانت ترفضه الكنيسة المصرية فى ذلك العصر .

والطبقة الثانية من القديسين ، هم الرهبان ، فيأتون فى المرتبة التالية للشهداء فى الجنة .. و " بعض النجوم أكثر بريقًا من الأخرى " وإذا كان القديسون فى العصر الحالى ينتمون إلى هذه الطبقة ، فان بعضًا من القديسين الأوائل ، كانوا فى الأصل رهبانا كالقديس " أنطونيو " والقديس " بولس " .

ويعد البابا الراحل " كيرلس السادس " أشهر القديسين فى هذا القرن وهو من الرهبان ذوى القداسة ، وقد دفن فى سرداب بدير القديس (ميناس - أبو مينا) وفى الموالد المسيحية ، تنتشر التذكارات التى تحمل صورته ، وفى أيام الجمع والآحاد ، يشهد الدير حشد غفير ، وعلى القبر الرخامى ، وضعت أوراق وأقلام ، لمن يرغب فى تحقيق أمنية أو رجاء من القديس كيرلس !

وكتابة " التلباس " تمثل تقليداً عريقًا عند أقباط مصر ، فيملأون إطارات الأيقونات ، وشروخ كهف القديس " انطونيو " .. وفى أى مكان بالأديرة التى يختارونها لقضاء حوائجهم، فتوضع فى الشروخ قصاصات الورق التى طويت بعناية ، وتحمل تلك العبارة البسيطة " اذكر يارب عبدك فلان .. " وقد تحمل الورقة طلبات محددة ، برجاء عون القديس فى قضايا المحاكم أوشفاء مريض أو حل مشكلة زوجية !

وقد جمعت معجزات " كيرلس السادس " فى عدة مؤلفات ، وهى تماثل فى طبيعتها ما يروى عن معجزات الأولياء المسلمين ، سوى بعض التفاصيل الصغيرة المرتبطة بالطقوس المسيحية ، كالاستخدام المتكرر للزيت والصليب والخبز المقدس ..

وكمثال لما يروى عن معجزاته ، ما حدث ل " عزمى زكى " الذى كان يعمل فى مكتب بريد دشنا عام ١٩٦١ ، فقد أصيب بصداع مزمن أفقده البصر تمامًا فسافر إلى القاهرة ، فى نهاية أيام الصوم الكبير ، وعرض نفسه على أشهر الأطباء الذين أكدوا استحالة أن يسترد بصره مرة أخرى ... وكان أن تحققت أمنيته القديمة بلقاء البابا كيرلس ، وقبل أن يخبره بحالته، بارك عينيه بعلامة التصليب ، قائلاً :" سوف يضىء يسوع المسيح عينيك " وعاد إلى بيته، وفى اليوم التالى ، بدأ بصره يعود إليه شيئًا فشيئًا ، وخلال بضعة أيام استرد بصره كاملاً !

وتشمل معجزاته أيضًا ، شفاء أمراض القلب والصرع والشلل والكلى والحمى الشوكية والربو وأورام الرئة ، والأمراض العقلية ، وحمى النفاس .. إلى جانب طرد الأرواح الشرير ة ، ويرجع الأقباط أسباب تقمصها لبعضهم إلى " أخطاء تحدث أثناء التعميد .. " !

وعملية إعداد بقايا الرفات - عظام أو شعر - للتبرك بها ، هى أمر مسيحى بحت ، فالمسلمون ، حتى المغالين فى الاعتقاد بالأولياء ، لايعبثون أبداً برفات موتاهم ، وعلى نحو ما شاهدنا فى دير " الأمير تادرس " بالقرب من باب زويلة ، فبقايا هذه العظام توضع فى اسطونات خشبية ، مغطاة ببعض الأقمشة ، حيث يقومون بتمريرها عدة مرات على الجزء المريض من الجسم ، فى يوم الأحد أو يوم الجمعة ولمدة ثلاثة أسابيع متوالية .. وكثير من الزوار من المسلمين ، وهذا أمر ليس بمستغرب ، فهم يذهبون أيضًا لبعض القساوسة ليخلصوهم من الأرواح الشريرة ! .. وكما تتردد بعض القبطيات على أضرحة الأولياء ، لتحقيق أمنية بالحمل ، وتنذر نذراً إن تحققت أمنيتها سواء هبة مالية أو ذبيحة أو .. صوم شهر رمضان ما تبقى من العمر !

وفى هذا السياق ، نجد أن ما كتبه المستشرق البريطانى " إدوارد لين " منذ قرن ونصف القرن ، ما زلنا نشاهده ونلمسه فى كثير من المعتقدات والتقاليد المتبادلة اليوم :

" .. إنها ميزة واضحة وسمة بارزة فى شخصية الشعب المصرى ، وبعض بلاد الشرق ، حيث يتبادل المسلمون والأقباط واليهود - خرافات - بعضهم البعض ، بينما يمقتون التعاليم الأساسية فى عقائد الآخرين ، فالمسلم أحيانًا ، يطلب كاهنًا مسيحيًا أو يهوديًا ليصلى ويدعو له فى مرضه ، والمسيحيون واليهود الذين يقعون فى نفس المأزق ، غالبًا ما يستدعون شيوخًا مسلمين ، وقد اعتاد كثير من المسيحين ، زيارة أضرحة أولياء المسلمين ، وبعض من الصالحين فيقبلون أيديهم ، يسألونهم الدعاء ، وشفاعتهم لتحقيق رجاء ، ويمنحونهم الأموال والهدايا ..

وللكنيسة المصرية قديسون عراة اشتهر أمرهم ، منهم " برسوم العريان " فى أوائل القرن الرابع عشر الميلادى ، حيث قضى نحو ربع قرن ترافقه حية ضخمة ، فى كهف تحت كنيسة "أبو سيفين" بحى مصر القديمة ، والناسك " أونوفريوس - أبو نفر " الذى يتضح من أيقونته ، أنه كان عريانًا لاتستره سوى لحيته الطويلة فقط ! .. وخصصت له بئر بدير الأمير تادرس بالقاهرة .

وحكايات عن معجزات - تتخذ طابعًا من البيئة الريفية - للقديس عبد المسيح المنهرى ، الذى توفى عام ١٩٦٩ ، وقد عمل واعظًا بقرية " منهرة "شمال المنيا وبها دفن ، وكان من قبل راهبًا بدير القديس "مقار " .. ومما يحكى عنه أنه أعاد الحياة إلى بطة امرأة فقيرة بعد أن ماتت !!

وقد عاصره فى تلك الفترة ، قديس ذاعت شهرته هو الراهب المقدس " فانوس " بدير القديس بولس ، ولد فى بداية العقد الثالث من هذا القرن ، ويروى أنه عندما أتم الخمسين من عمره ، ظهرت عليه علامات " النورانية " وأصبحت له كرامات ، وكثرة زواره شكلت إزعاجًا للدير ، فنقل إلى ملحق الدير فى " بوش " بالقرب من بنى سويف ، حيث أودع غرفة بمفرده نادراً ما يغادرها ، تحيط به كراهية واضحة وغيرة من أقرانه الرهبان ويرفضون بيع صوره فى المكتبات الدينية ، ويزعم بعض الأقباط أن " فانوس " قد زارهم وساعدهم فى تفريج كرباتهم !

وقد ألقى " العلم الخفى " لأولياء المسلمين بظلاله على فئة " السواح " الأقباط ، فمن المعتقد أن بعضًا من النساك والزهاد ، تشف أرواحهم وأجسادهم ، وليس شرطًا أن يجوبوا الصحارى فقط ، وأنما يمكنهم السياحة فى الأرض ، ويدخلون إلى أى مكان يطيب لهم حتى لو كان مغلقًا ، ويستطيع القديس السائح أن يلج الكنائس ويجلس بين الناس دون أن يراه أحد !

وتبلغ الموالد المسيحية نحو اثنين وستين مولداً ، ويقام أكثر من مولد على شرف قديس واحد، فعلى سبيل المثال ، يقام مولدان كبيران للقديس " چورچ " واحد فى " ميت دمسيس " فى أغسطس ، والآخر فى " زريق " بالقرب من أرمنت ، فى شهر نوفمبر .

وأكبر موالد السيدة العذراء ، تقام فى عيد القيامة ، فى كنيسة مسطرد ، وكنيسة الزيتون بالقاهرة ، و " جبل الطير " بالمنيا ، وفى دير " المحرق " ودير " درنكة " بأسيوط ، بخلاف الموالد الصغيرة ، ويفسر ذلك بطول رحلة العائلة المقدسة داخل مصر ، ويعتبر دير المحرق أقصى بقعة وصلت إليها العائلة المقدسة جنوبا .. ودير درنكة بجنوب أسيوط، فيحتل مساحة شاسعة وتغلب على طابع بناءه الحداثه ، وبه كهف ينسب إلى السيدة العذراء ، تحتشد إليه جموع الأقباط فى شهر أغسطس .

ومولد " الست دميانة " من الموالد المشهورة ، فى شهر مايو بكنيستها بالقرب من المنصورة، كذلك مولد " القديس برسوم العريان " فى سبتمبر بمصر القديمة .

وتتشابه الموالد الإسلامية والقبطية ، فيما يتعلق بمجالات التسلية والنشاط التجارى ، فاذا كان فى الموالد الإسلامية تروج تجارة شرائط الكاسيت ، قرآن وإنشاد ومديح ، الحمص والحلوى ، ففى الموالد القبطية ، تروج تجارة التذكارات " الدينية ، مثل الزيقونات التى تحمل رسمًا للسيدة العذراء وللسيد المسيح وبعض القديسين وللبابا، وحلى مقلدة وأطباق نحاسية ، وفى مولد القديسة " دميانة " تباع قطع من الفخار مكتوب عليها " بعودة يا دميانة" !

وتنتشر أيضًا عادة " الوشم " سواء لدق الصلبان على المعاصم ، أو صورة قديس أو المسيح مصلوبًا ، وغالبًا ما تقضى بعض الأسر أسبوعًا أو عشرة أيام فى خيمة مؤجرة من الدير ، والأزياء - بصفة عامة - تتخذ مظهراً بورجوازيًا ! ..

والخدمة الكنسية تستخدم فيها مكبرات الصوت ، وفتيان بزى موحد ينظمون تدفق الناس وتوجيههم ، ويردد الزوار ابتهالاً يسمى " ترنيمة التمجيد " ودعاء باللغة القبطية ينهى بكلمة " أجيوس " ثلاث مرات وتعنى المقدس ، القديس فلان .. ويحرق البخور ، ويوضع فى مدخل الكنيسة أو الدير ، صندوق للنذور ، مقابل إيصالات بالهبة المدفوعة ، من أجل رغبة فى الشفاء أو أمنية بالنجاح أو التوفيق فى التجارة والحب !

كذلك توهب أضاحى ، يقوم بذبحها وإعدادها جزارين متطوعين ، ويبيع الدير مقدار الربع من اللحوم والجلود ، والباقى يوزع على الفقراء . ومع مظاهر الحفاوة برواد المقاهى القريبة ، ومع المشروبات الساخنة ، تتردد عبارات " باسم المحبة " و " باسم العذراء المقدسة " .. وبعض الزوار يرفعون رايات مطرزة ، يغلب عليها اللون الوردى ، توهب للدير أو الكنيسة ، فتصنع منها الستائر والفُرش والأيقونات ، وتجرى عمليات التعميد فى مولد " مارجرجس " وفيه أيضًا تجرى عمليات " الختان " كما فى الموالد الإسلامية ، تحت إشراف عيادة طوارىء مهداة من الحكومة الهولندية !

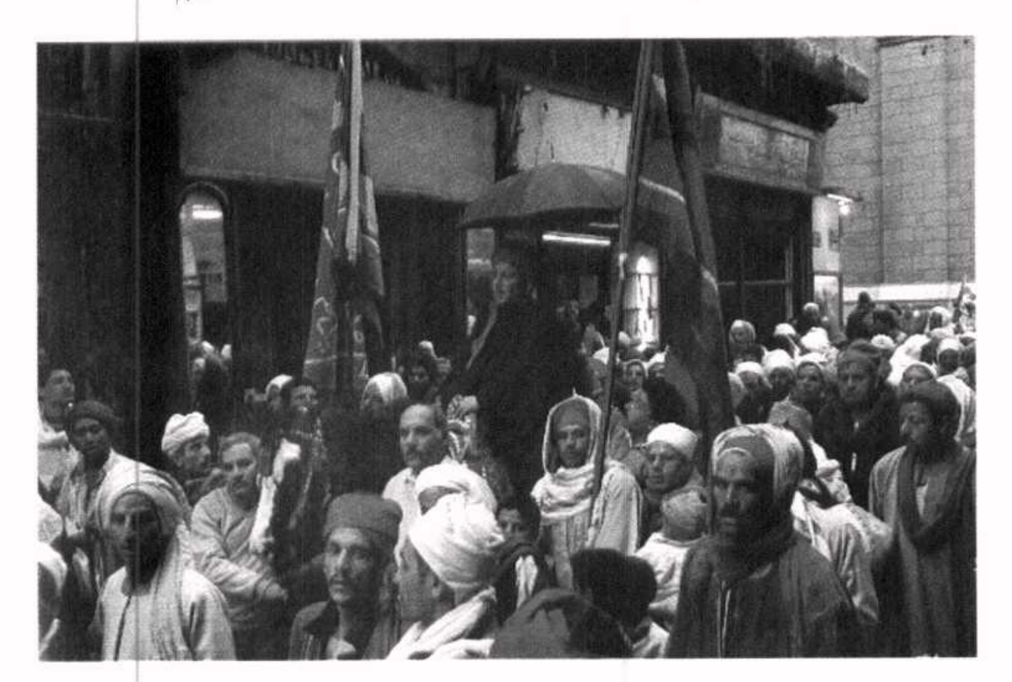
وفى الليلة الختامية ، وفى " زفة " كبيرة عصراً ، يحمل الأنبا أيقونة ذات إطار كبير تحمل رسمًا للقديس صاحب المولد ، مع إطلاق البخور حولها ، والجميع يتهافتون على لمسها ونوال البركة .

وظاهرة " التجلى " أو " الظهور " فى موالد السيدة العذراء والست دميانة ، يعتقد بها عامة الأقباط ، حيث تظهر العذراء ليلاً فى شكل حمامة بيضاء ، تطوف حول برج الكنيسة وفوق الجموع المحتشدة فى مسارات متعرجة ، أو تظهر بنفسها كما حدث فى سماء كنيسة الزيتون عام ١٩٦٨ . ويشترك الأقباط مع المسلمين فى عادة النوم بالأضرحة خلال الموالد ، آملين رؤية العذراء أو أحد القديسين ، أو رغبة فى تحقيق أمنية دنيوية ! .. ويكتبون رسائل بأسمائهم وأمنياتهم ، على نحو ما يحدث فى ضريح الإمام الشافعى ، وإيقاد الشموع أمام الأيقونات وصور العذراء ، كما يقوم بعض القساوسة بكتابة تمائم لطرد الأرواح الشريرة !

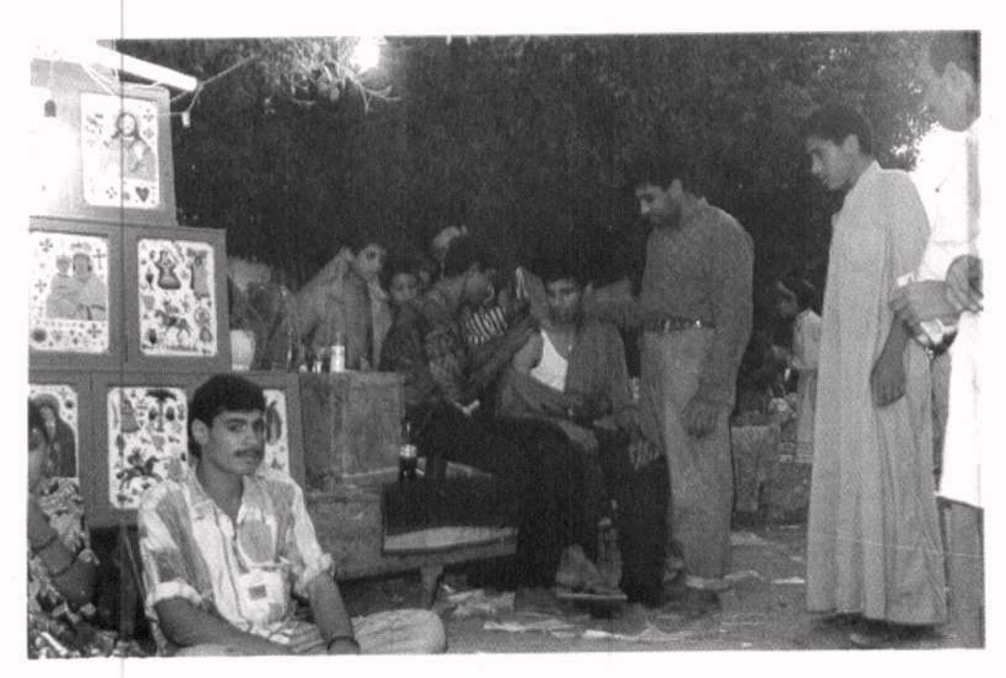
مولد أبو حصيرة أو حائط المبكى الجديد!

فى الأسبوع الأول من يناير من كل عام ، وفى قرية " دميتوه " بدمنهور ، يتوافد نحو ١٥ ألف إسرائيلى يتقدمهم وزير الأديان ، ويهود من أوروبا والمملكة المغربية ، ليقوموا بمولد "صديق يعقوب أبو حصيرة " وسط إجراءات أمنية مشددة ، وقبل معاهدة السلام بين حكومة مصر وإسرائيل ، كان من المعتقد أنه ولى مسلم ، وأكثر زواره كانوا من المسلمين ، وقيل أنه كان يهوديًا ثم أشهر إسلامه ، وتنسب له كرامات ومعجزات ، ولقب " أبو حصيرة " تعددت فى تفسيره الروايات ، منها أنه أتى طافيًا على حصيرة من سواحل المغرب إلى شاطىء الأسكندرية ، وفى رواية أخرى ، أنه أتى عليها طائراً فى الهواء حتى حطت به فى هذا المكان!.. وتجمع الروايات على أنه ولد بالمغرب ، وعاش نحو ثلاثين عامًا فى دمنهور ، إلى أن توفى عام ١٨٨٥ .

وأصبح ضريح أبو حصيرة ، واحداً من أبرز معالم السياحة الدينية اليهودية فى مصر ، وفى الليلة الأولى من مولده ، يباع مفتاح الضريح ، فى مزاد رمزى ، ببضعة آلاف من الدولارات ، تستخدم فى ترميم الضريح وتجميله ، وطوال أيام المولد ، يذبحون الخراف - داخل الضريح - طبقًا لشريعتهم ، ويضعون أكداسًا من المكسرات وأفخر أنواع الخمور على القبر "التماسًا للبركة " .. ويقيمون فى خيمة ضخمة بجوار الضريح ، وبينما يقضون أيامًا فى صخب وغناء ومجون ، يطوفون حول القبر ، ضاربين بأيديهم على صدورهم ، وصرخات جنونية، تطلب شفاعة أبو حصيرة لتحقيق أمانيهم !!



«خليفة» البيومى فى موكب الطريقة البيومية إحتفالاً بمولد النبى



مشهد من مولد «برسوم العريان» الشهير بالمعصرة



الشيخ عبد الله يتهيأ للدوسه فى مولد أبو القمصان بالقرنه



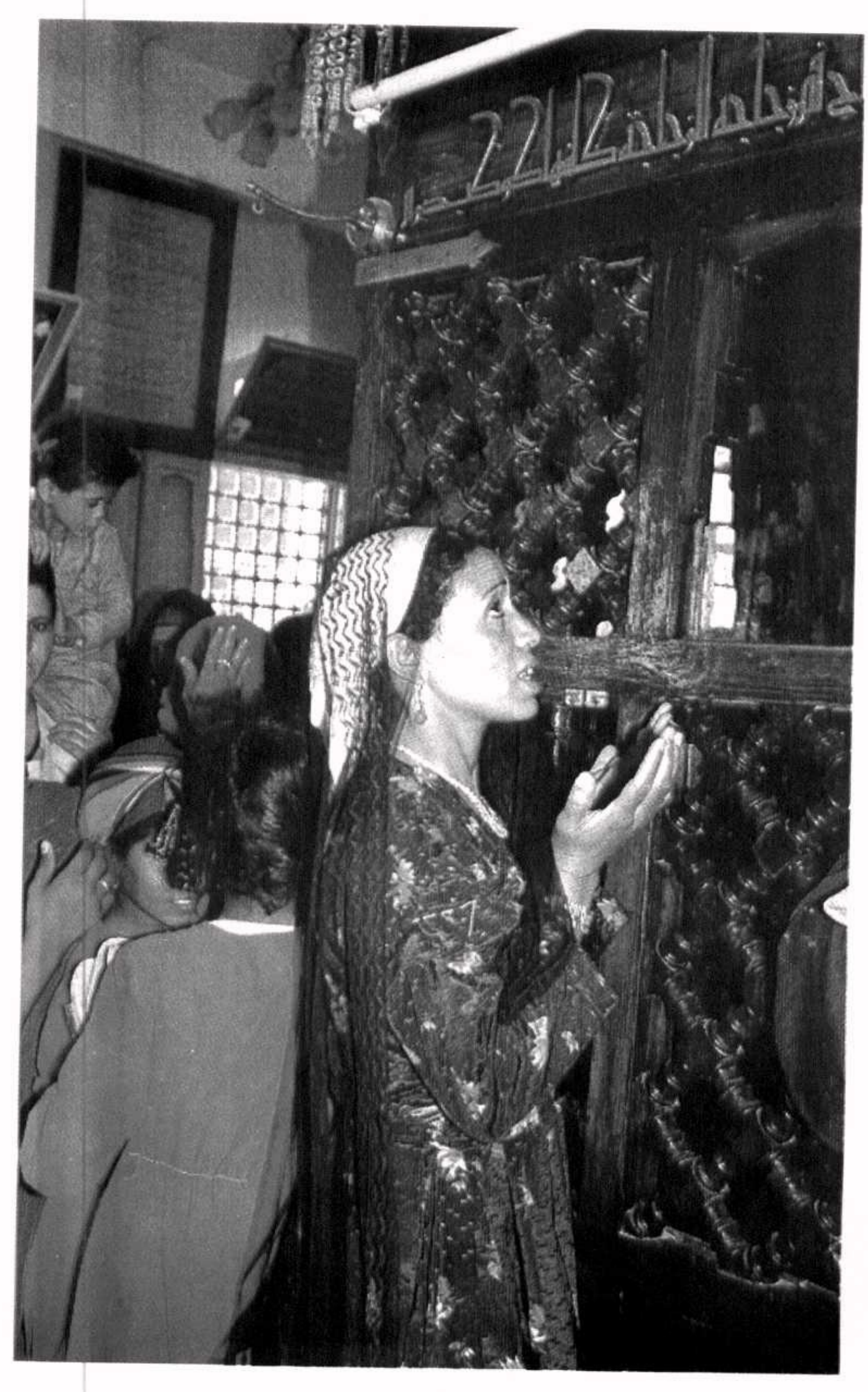
فى مولد الشيخ موسى بالأقصر



الطواف بالكسوة الجديدة حول ضريح أبى الحسن الشاذلى



سرادق مداح الرسول الأشهر «محمد الكحلاوى»



الدعاء وإلتماس البركة أمام ضريح الإمام الشاذلي

الاعتقاد فى شفاعة الأولياء

التصورات المستمدة من واقع الحياة العقائدية الصوفية ، تقرر بأن " الأولياء " هم هؤلاء الأشخاص الذين خصهم الله - تبارك وتعالى - بقدرات متميزة عن القدرات الطبيعية والبشرية ، يختصون بها عن غيرهم من الناس ، تجعل فى مقدورهم أداء أفعال إعجازية ، تعرف بـ " الكرامات " ..

فالكرامة هى : " الإشارة أو الرمز الذى يشير إلى تلك القدرة التى يستند إليها الاعتقاد فى الأولياء " .

وإذا كان الإعتراف بالولاية يستند أساسًا إلى وجود واكتساب القوة الروحية ، فلابد من دلائل تدعم الاعتقاد فى الولى ، كاشتهاره ، بقوة الإيمان والحكمة والتقوى وإنكار الذات والإسراع فى تقديم العون والمساعدة ، وتستمر فاعلية القوة الروحية ، إلى ما بعد انقضاء أجل الولى فى الدنيا .

وكم عرف تاريخ التصوف الإسلامى من فرق وطوائف تعيش على ذكرى أولياء طواهم الرمس منذ قرون ! .. وتبلغ الدهشة مداها لهذا السلطان الذى بلغ من قدرته على الاستبداد بهوى الناس ، والاعتقاد فيمن أصبحوا فى رحاب الله .. وذمة التاريخ !

وقد شاع فى مصر ، نوع من الولاية ، بأن يزعم " المشيخة " واحد من عامة الناس ، وأنه "تلقى العهد " على السيد أحمد البدوى أو الرفاعى ، وقد ادعى أحد مشايخ الطريقة "البرهامية الدسوقية " فى أولى جلساتى معه ، بأنه " أخذ العهد على سيدى إبراهيم الدسوقى فى المنام " !

ويعيش هذا الشيخ - وغيره - ومريدوه على بركة هذه الذكرى التى خلفها لهم القطب الكبير ، الذى يفاخرون بأنهم أخذوا الطريق عليه ! .. ويستمدون منه " السر " .. ويستلهمون "الولاية" .. !

الشفاعة مدخل الاعتقاد

من الأحداث الغريبة التى أرخ لها المؤرخ الكبير " الجبرتى " : " .. أنه فى يوم الأربعاء ٢٤ ذى الحجة آخر سنة سبعة وأربعين ومائة وألف ، أشيع فى الناس بمصر ، بأن القيامة قائمة يوم الجمعة سادس عشرين الحجة ، وفشا هذا الكلام فى الناس قاطبة ، حتى فى القرى

والأرياف ، وودع الناس بعضهم بعضا ، ويقول الإنسان لرفيقة بقى من عمرنا يومان ، وخرج الكثير من الناس والمخاليع إلى الغيطان والمتنزهات ، ويقول لبعضهم البعض دعونا نعمل حظ ونودع الدنيا قبل أن تقوم القيامة ، وطلع أهل الجيزة نساء ورجالاً وصاروا يغتسلون فى البحر، ومن الناس من عَلاه الحزن وداخله الوهم ومنهم من صار يتوب من ذنوبه ، ويدعو ويبتهل ويصلى ، واعتقدوا ذلك ووقع صدقه فى نفوسهم ، ومن قال لهم خلاف ذلك أو قال هذا كذب ، لا يلتفتون لقوله ، ويقولون هذا صحيح وقاله فلان اليهودى وفلان القبطى ، وهما يعرفان فى الجفور والزايرجات ولايكذبان فى شىء يقولانه ، وقد أخبر فلان منهم على خروج الريح الذى خرج فى يوم كذا ، وفلان ذهب إلى الأمير الفلانى وأخبره بذلك وقال له : احبسنى إلى يوم الجمعة وإن لم تقم القيامة فاقتلنى ، ونحو ذلك من وساوسهم وكثر فيهم الهرج والمرج إلى يوم الجمعة المعين المذكور ، فلم يقع شىء ، ومضى يوم الجمعة وأصبح يوم السبت ... يقولون فلان العالم قال إن سيدى أحمد البدوى والدسوقى والشافعى ، تشفعوا فى ذلك وقبل الله شفاعتهم ، فيقول الآخر : اللهم انفعنا بهم ، فاننا يا أخى لم نشبع من الدنيا وشارعون نعمل حظ ، ونحو ذلك من الهذيانات ،، !!

وهكذا تدخل هؤلاء الأقطاب الثلاثة بشافعتهم طالبين من الله " تأجيل نهاية العالم " .. وقد قبل الله هذه الشفاعة !!

إنها أكثر من " الكرامة " .. والجبرتى فى هذه الواقعة إنما يرثى سذاجة الشعب !

وهذه الشفاعة - فى واقع الأمر - تكاد لاتختلف كثيراً عن الشفاعة التى تنسب للأنبياء، وإذا كانت قصص كرامات الأولياء ، فى القرن العشرين لاتعرض لمعجزات غير عادية ، فان مفهوم الشفاعة - فى مدلوله - لم يختلف كثيراً ، وستظل دائمًا فى جوهر الاعتقاد فى الأولياء ، مطلبًا حيويًا ، فى الأوقات الحرجة المتجددة فى زماننا .. وستظل " القداسة الشعبية " لأولياء مصر .. فَحَوْلَهُم وبهم تحل البركات .. وتعيش وتثمر الحكايات والروايات !

شفاعة الأقطاب فى المفهوم الشعبى :

ساد العرف بأن تكون " القطبانية " لأحد الأولياء الأفذاذ ، والشائع أنهم أربعة : " محيى الدين عبد القادر الجيلانى - ٤٧٠ هـ / ٥٦١ هـ " و " أحمد الرفاعى - ٥١٢ هـ / ٥٧٨ هـ" و " إبراهيم الدسوقى - ٦٥٣ هـ / ٦٩٦ هـ " ..

وهؤلاء الأقطاب لهم " امتياز الشفاعة " فى المفهوم الشعبى ، فهم " سلاطين العارفين " و .. " أصحاب الكرامات الخارقة والأنفاس الصادقة " و .. " لهم المحل الأرفع من مراتب القرب، والمنهل العذب من مناهل الوصل " و .. " ملوك الحضرة الإلهية " !

وقد ظفر بالقطبانية - غير هؤلاء - بعض مشاهير الأولياء ، منهم الشيخ " عبد الرحيم القنائى " و " أبى الحسن الشاذلى " و " أبو الحجاج الأقصرى " وأصابها الشيخ " محمد الحفناوى الخلوتى " توفى سنة ١١٨١ هـ ، الذى قال عنه الجبرتى :

" دانت لطاعته الرقاب ، وأخذ العهود على العالم ، وأدار مجالس الأذكار بالليل والنهار، وأحيا طريق القوم بعد درسها ... وبلغ هديه الأقطار كلها ، وصار له فى كثير من قرى مصر - قبل أن يكون قطبًا - نقيب وخليفة وتلامذة وأتباع . ولم يزل أمره فى ازدياد وانتشار ، حتى بلغ سائر أقطار الأرض .. وصار خليفة الوقت وقطبه ولم يبق ولى من أهل عصره إلا أذعن له ، وأسلم على يديه خلق كثير من النصارى " !

ويضيف الجبرتى ، أنه بموته " ابتدأ نزول البلاء واختلال أحوال الديار المصرية " .. فقد كان رحمه الله " قطب رحى الديار المصرية ، ولا يتم أمر من أمور الدولة إلا باطلاعه وإذنه " !!

ومن الأولياء من توطد سلطانه فى مشارق الأرض ومغاربها ، حتى ليأبى القطبانية إذا عرضت عليه ! .. فيحدثنا شيخ المؤرخين عن السيد " مصطفى البكرى " الذى " أوتى مفاتيح العلوم كلها حتى أذعن له أولياء عصره ومحققوه فى مشارق الأرض ومغربها ، وأخذ على رؤساء الجن العهود وعم مدده سائر الورود .. فان قطبانية المشرق قد عرضت عليه فأباها " !

وينعقد الرأى فى المفهوم الشعبى ، على أن القطبانية لاتخلو لحظة واحدة من ولى يتولى القيام بأعمالها .

ومراتب الأقطاب والأولياء ترتبط - بشكل جوهرى - بالانتساب إلى بيت النبى ، و "النسب الشريف " يرتفع بمنزلة الولى ، ويمثل أهمية كبرى فى الاعتقاد الشعبى نحو أشخاص يتمتعون بـ " الصفة الاستثنائية " !

وعلى سبيل المثال ، فالسيد أحمد البدوى ، مؤسس أكبر الطرق الصوفية فى مصر وأكثرها شعبية ، ينتهى نسبه إلى الإمام على بن أبى طالب " وهذا النسب الشريف تأكد فى أقدم التراجم ، ومنقوش على مقصورة ضريحه الشهير بطنطا وهو الذى " غادر مكة مزوداً بشجرة

نسبه " .. يستغيث بجده - صلى الله عليه وسلم - وبأهل بيته الكرام ، فى الملمات والشدائد .. وفى معركته الأسطورية ضد " فاطمة بنت برى " والتى كانت مغرمة بالإيقاع بأرباب التقى والصلاح ، ولكنها وجدت نفسها مع السيد البدوى ، أمام صنف نادر من الرجال .. صلب الإيمان ، قلبه مشغول دائمًا بذكر الله لا " بذكر الغوانى " .. !

وقد احتشدت مؤلفات مناقب السيد البدوى ، بكرامات أسطورية غريبة لاتحصى ، منها - على سبيل المثال - إحياء الموتى وإنقاذ الأسرى فى بلاد الفرنجة ، وقوله للشيء كن فيكون باذن الله !

وكثير من أتباعه ، يجعلونه فى منزلة أسمى من مرتبة الأنبياء ! وهذا شائع عند غلاة الصوفية ، الذين يخلعون على الأولياء أقدس الصفات ، ويجعلون النبوة دون الولاية ! .. وقد وردت فى آثار ابن عربى والشعرانى ، نصوصًا تنبيء بايثار الولاية على النبوة ، فالنبوة مقامها فى الدنيا ، أما فى الآخرة ، فان التشريع ينقطع وتبطل أحكامه .. وهنا لك يتضح أن الولاية أسمى من النبوة ! .. وقد سمى الله نفسه وليًا ولم يسم نفسه نبيًا ! .. وأن لله عباد ليسوا بأنبياء ، ولكن النبيين يغبطونهم بمقامهم !!

و " الرؤيا المنامية " تمحو الزمان والمكان .. فكم من لقاءات بالنبى - صلى الله عليه وسلم- فى حياة هؤلاء الأقطاب ! .. وكم من إسراءات إلى الفردوس الأعلى و " الحضرة الإلهية " .. ومشاهدة ما يقدر وراء الغيب ، والاتصال بالأهل فى مكة ، والاطلاع على مشاهد الجنة والنار ، ومخاطبة الأنبياء والأولياء وسيدنا الخضر !!

والرؤى المنامية ، هى أساس شفاعة الأولياء ، فالمريد إذا ألمت به ضائقة أو أصابه مرض ، عليه أن ينام ثلاث ليالى بالضريح ، حتى يمكنه أن يتلقى إرشادات الولى ، أو يداويه فيستيقظ صحيحًا معافًا !

والأقطاب والأولياء أنفسهم فى حياتهم ، كانوا لا يتصرفون أو ينتقلوا من مكان لآخر ، إلا بأمر فى رؤية منامية !

ومصطلحات شائعة فى دنيا التصوف .. " الكشف " .. " الإلهام " .. " النور القدسى " .. " الذوق " .. " المعرفة بالقلب " .. " التجلى " .. لاشك أنها تؤثر كثيراً فى الاعتقاد

الشعبى ومفهومه للشفاعة ، بشكل يفوق علوم الشريعة ، ومع ذلك فقد ارتبط التفقه فى علوم الدين بالسيدة نفيسة ، حتى اشتهرت بـ " نفيسة العلم " .. واشتهر السيد البدوى بتعمقه فى أصول الفقه ، ولم يحفظ التاريخ لكليهما زثر لمخطوط يتضمن شيئًا من علمهما !

والتقرب إلى الأولياء ، فى الاعتقاد الشعبى ، قد يكشف الحجب عن أعين القلوب فينجلى ما هو مسطور فى اللوح المحفوظ ! و " الكشف الإلهى " يستوعب كل الحقائق . بالمجاهدة وقطع العلائق ، وليس بدراسة العلوم الشرعية ، حينئذ يفيض النور على الصدور !

ولنيل شفاعة الأولياء ، لابد من اجتياز عدة أبواب ، فالسيد البدوى يطلق عليه " باب النبى " .. والنبى ذاته هو " باب السماء " .. وتتدرج مراتب الأولياء وفقًا لنفوذ كل منهم ومكانته ، فالولى " المحلى " يتشفع لأتباعه لدى القطب ، والذى بدوره يتشفع لدى الحضرة النبوية .

وهذا التدرج يفسر - بقدر كبير - نظام الموالد المصرية ، والطقوس المصاحبة لها ، ففى مدينة طنطا ، تسبق موالد صغيرة لتلاميذ وأتباع السيد البدوى ، الاحتفالات الضخمة بمولده، والتى بدورها قبيل أسبوعين من بدء الاحتفال بمولد إبراهيم الدسوقى !

ويسود الاعتقاد بأن اجتماع أكثر من ولى فى موضع ما أو ما يمكن أن نسميه " رابطة أولياء " ! .. يسهم فى قوة الشفاعة ومدى قبولها ، وهو ما يفسر وجود بعض مقابر الأولياء حول ضريح القطب أو بالقرب منه ، فبالنسبة لقطبى الدلتا ، نجد فى مدينة طنطا نحو أربعين ضريحًا ، منها ستة أضرحة لبعض الأتباع فى مزار السيد البدوى ، كذلك فى مدينة دسوق ، نجد بجوار ضريح إبراهيم الدسوقى ، قبر لأخيه ، ويعبر زواره إلى الضفة الأخرى للنيل ، لزيارة ضريح والده الشيخ أبو المجد .

والسيرة الذاتية لأولياء " الجوار " تتوارى فى ماضٍ مجهول ، فالأهم أن " البركة الجماعية تسهم فى فعالية الشفاعة " !

خصوصية الشفاعة :

آمال وآلام الزائرين ، لاتمضى إلى أى ضريح بالمصادفة ، ولكن شهرة الولى واختصاصه بالشفاعة ، والبعد المكانى ، لهم تأثير كبير فى قصد الزيارة .

فالضريح الذى نتكبد إليه مشاق السفر ، يصبح أكثر جذبًا ورهبة من ذلك الضريح القريب المتاح زيارته فى أى وقت !

هناك أيضًا ، تقسيم فئوى اجتماعى : أولياء الحضر أو المدن ، وأولياء الريف ، وبالرغم من أن السيد أحمد البدوى ينتمى إلى الفئة الثانية ، إلا أنه كان سببًا مباشراً فى النشاط التجارى الكبير لمدينة طنطا ، واستقبال الملايين من سكان المدن ، على مدار السنة ، ومع الوضع فى الاعتبار ، أن العادات الدينية لاتخضع للتقسيم الاجتماعى والجغرافى .

مع تزايد موجات النزوح الريفى إلى العاصمة ، وتمدين معظم قرى مصر ، يظل الفارق شاسعًا ، بين الاحتفالات الضخمة بموالد أولياء القاهرة ، كالسيدة زينب والإمام الحسين والشافعى ، والتجمعات الصغيرة والمظاهر المحدودة ، عند أضرحة أولياء القرى .

ومن الملاحظ أن زيارات الأولياء تشمل الرجال والنساء ، دون تخصيص ، وطلب الشفاعة هو هدف الجميع ، ويشتهر بعض الأولياء ، بالتوجه إليهم لتحقيق رغبات النساء ، كالزواج للعوانس والإنجاب للعاقرات ..

وجماهير الزوار لكبار الأولياء ، يفوق كثيراً نطاق المريدين أو من جمعتهم أخوة الطريق ، ففى مدينة طنطا ، كان لضريح الشيخ أحمد العراقى قداسة ويحظى بالزيارة ، أما اليوم ، فالقبة مهدمة وأغلق الضريح ، بعد أن هجره مريدوه وانضموا إلى أفواج تابعى السيد البدوى !

وخصوصية الشفاعة ، تحددها الأصول الاجتماعية للولى ، البيئة ، الجوانب الروحية ، وسجل الكرامات منبع لانظير له لتبيان الرغبات المطلوب من الولى أن يتشفع فيها .

وتساؤلات تتبادر إلى الذهن ، هل طلب الشفاعة من الولى تحدده نفس الأمانى أو المخاوف التى كانت شائعة فى العصور الوسطى ؟! .. وهل تطورت هذه الرغبات فى عصرنا ؟ .. وهل شعبية الولى تأسست على شهرته فى تحقيق المعجزات أم لقيامه بدور بارز فى خدمة الدعوة ؟

ففى حالة السيد البدوى - على سبيل المثال - تردد السير الذاتية نفس الفضائل التى اشتهر بها : تحرير الأسرى ، معاقبة الظالمين ، ونصرة المظلومين ، والإتيان بالإشياء المفقودة .. وتنفرج بوابة المعجزات على مصراعيها .. فالقطب قدراته تفوق كل خيال ، فيحيى الموتى .. ويقول للشىء كن فيكون .. !!

ولكن من الملاحظ ، صمت المصادر التى تناولت مناقب السيد البدوى ، وخلوها من قصة شفاء إعجازية .. أو إنجاب عاقر أو وفرة محصول أو شفاء ماشية .. ربما كان اتجاه مؤلفى

المناقب هو عدم نشر كرامات عادية ومكررة ، بينما إطلاق أسرى المسلمين فى بلاد الفرنجة ، أو معاقبة قاض فاسد .. هى أعمال بطولية جديرة بالذكر والتقدير .

والمحوران الأساسيان اللذان تدور حولهما رغبات التشفع ، هما شفاء المرضى ، وإنجاب الأطفال - الذكور خاصة - حتى يومنا هذا ، يضاف إليهما بعض الهموم المعاصرة كالرغبة فى اتساع الرزق أو الترقية فى العمل ، واجتياز الامتحانات الدراسية ، والتوافق بين الأزواج !

ومن الملاحظ ، كثرة عمليات الختان بالقرب من الضريح فى أيام الموالد رغبة فى حماية - الطفل الذكر - من الحسد والأمراض بفضل بركة صاحب المقام !

طقوس الشفاعة :

دون الاستفاضة فى وصف ظواهر معروفة ، نلاحظ استمرار الثلاثى الكلاسيكى : الزيارة ، النذر ، المولد ..

فالزيارة ، ليست مجرد مرور عابر ، ويجب أن تؤخذ بمعناها الدقيق ، فعملية الاستقبال داخل الضريح ، هى لقاء بين الولى " الداعى " والزائر " الضيف " وعلى الداعى أن يكرم ضيفه ، فمن ضاقت عليه الأرض بما رحبت له حق الموئل ، ومن أصابه كرب أو تعرض لمشكلة، أن يلتزم الصبر وانتظار الفرج حتى يتدخل الولى بشفاعته ! .. وإياك أن يخيب الولى رجاء الضيوف !

والنذر ، تتعدد أشكاله من هبات المؤمنين بالولى ، سواء بالتبرع بمبالغ مالية ، أو وقف منشأة للصرف على خدمة الضريح ، أو بتقديم الطعام والذبائح إلى الزوار ، ووفرة النذور تدل - بلا شك - على بركة عظيمة ! .. وتشهد على صلاح الولى ومدى قدرته على الشفاعة !

فى مؤلفات مناقب الأولياء ، نلحظ كثرة التعبيرات التى تدل على شعبية بعض الأولياء : " له نُذُر كثيرة " .. " كراماته كثيرة مشهورة ، ينذر له الناس فى الشدائد " ..

أما المولد ، فيقدم شكلاً جماعيًا احتفاليًا ، له مظاهره المميزة المتوارثة مضافًا إليها مواصفات الاحتفال بالأعياد ، ويوم السوق ..

وهذه الشعائر المصاحبة لطلب الشفاعة ، يفضلها كثير من العامة عن فعل الخيرات ! .. والتزام تعاليم القرآن والهدى النبوى .. !

والنذر هو الأصل ، وأول زيارة إلى ضريح الولى تأخذ شكل الاستجداء لتحقيق إحدى الأمانى - المتكررة - التى سبق الإشارة إليها ، وتمثل " إبرام عقد " معنوى مع الولى ، بعمل نذر كبير - غالبًا ذبح عدد من الخراف - فى حالة قبول " طلب الشفاعة " فاذا حدثت المعجزة، يجب تقديم الشكر إلى الولى وتقبيل أعتاب الضريح والوفاء بالنذر .. ثم تصبح الزيارة وارتياد المولد تقليداً متبعًا !

أساليب الشفاعة :

تتنوع الأساليب أو التعبيرات الشائع استخدامها فى طلب الشفاعة ، وقصص الأولياء ومناقبهم تزخر بهذه التعبيرات ، والتى لم يطرأ عليها أى تطور منذ العصر العثمانى ، وهى تعبيرات مباشرة فى صيغة نداء ، مصحوبة أحيانًا بلفظة " باذن الله " أو " إن شاء الله " ..

وأوضح مثال ، فى قصة تحرير السيد البدوى ، للأميرة " خضرة الشريفة " وما حدث لها فى " بلاد النصارى " .. وكرامات السيد البدوى التى تباع بكثرة فى أيام المولد ، والتعبير الشائع الذى اشتهر على ألسنة العامة : " نظره يا بدوى يا جايب اليسرى .. !

وبعض الزوار يجلسون فى مواجهة الضريح ، رافعين أيديهم بقراءة الفاتحة ثم يدعو ما شاء الله من الدعوات لتحقيق أمنيته ، ومنهم من يتشبث بالمقصورة ولسانه يلهج بالدعاء والرجاء .. عقب ذلك ، يقوم بالدوران حول الضريح بعدد مرات فردية ، مرة أو ثلاث أوسبع مرات ، وإذاذ حدث خطأ فى اتجاه الدوران ، سرعان ما يصححه سدنة الضريح !

وقد يكون الدعاء سراً أو بالتمتمة أو جهراً ، ومنهم من يقف فى مواجهة الضريح ، رافعًا يده ، مخاطبًا صاحب المقام ، السيد البدوى - على سبيل المثال ، قائلاً : يا " باب النبى " .. يا " شيخ العرب " .. يا " بوفراج " .. " نظرة يا بدوى " .. أو التعبير الكلاسيكى الشهير "شى لله يا سيد " !!

وقد يستخدم هذا التعبير فى النداء لأولياء آخرين :" شى لله يا حسين" لكنه أكثر شهرة وخصوصية بالسيد البدوى !

هناك أيضًا ، صيغة مشهورة " دليل ، يا دليل يا سيد " ويتباين تفسير هذه الصيغة ، فيرى البعض أن المقصود بها ، أن السيد البدوى هو الدليل للحصول على رضاء الرب ونيل الشفاعة ، وهذا التعبير يرادف معنى " باب النبى " .. بينما يرى البعض أنه : دليل الحيارى والمظلومين ومن لا شفيع لهم ، والدليل للعثور على المفقودات : فكم من خواتم فقدت فى

النيل ، وعثر عليها - بفضل بركته - فى بطون أسماك ! .. وكم من حمير سرقت ثم عادت إلى أماكنها ! .. وكم من أطفال تاهوا ثم عادوا بعد فقدان الأمل فى عودتهم ! وكم من أسرى تحرروا ووجدوا أنفسهم فى وطنهم !

وعند أبواب الأضرحة ، تباع كتب صغيرة للدعاء وقضاء الحاجات ، تتضمن بعض السور القرآنية أو آيات من القرآن ، تفيد فى الدعاء والوقاية ، وبعض أوراد الصوفية ، وتضرعات فى شكل أبيات شعرية !

وقد يلتزم البعض السكون التام وهو جالس أمام الضريح ، إذ ليست هناك ضرورة للتعبير بصوت مسموع عما يعرفه صاحب المقام جيداً ! .. بينما يظل التعبير الشعبى الأشهر بطلب "المدد " هو القاسم المشترك فى الزيارات وحلقات الذكر والموالد .. ومفتاحًا لشفاعة الأولياء !

الديوان السماوى .. وكرامات الأولياء !

الاعتقاد الشعبى فى الأولياء ، يتلخص فى أن الله قد منح بعض عباده المقربين " امتيازات " لاحدود لها .. يكونون حول الرسول " ديوانًا سماويًا " ينشر قدرته !

وانتشار التيارات الصوفية ، أسهم بدور جوهرى فى ترسيخ هذه المفاهيم ، فالأولياء هم هؤلاء المقربين ، الذين خصهم الله بقدرات خاصة يتميزون بها عن غيرهم من البشر ، وتجعلهم قادرين على فعل المعجزات ، التى تعرف بالكرامة أو " البركة " .. وقدرة الولى على التدخل أو التوسط ، التى منحه الله إياها ، تسمح له بالشفاعة ، وتعبير " نفعنا الله ببركته " يرادف تمامًا " نفعنا الله بشفاعته " ..

ولاشىء أكثر " واقعية " لأتباع الولى و " محاسبيه " سوى أعماله الإعجازية المتداولة فى قصص كراماته ! .. وقد تنوعت مصطلحات الشفاعة فى المصادر المختلفة ، تبعًا للهجة والثقافة التى كانت سائدة فى تلك الفترة ، أما فى عصرنا ، فتشيع تعبيرات " زغثنا " .. "أدركنا " أو " استغاث بـ " سواء فى اللغة الدارجة أو لغة الأدب ، وتتعدد صيغ طلب الشفاعة أو الإغاثة " أغثنا يا رسول الله " .. " المدد يا رسول الله " .. وكما ورد فى طبقات الشعرانى : " يا سيدى أحمد يا بدوى المجدنى " وكان هذا طلبًا من أسير يطلب النجدة من محرر الأسرى ، و " توجهت إلى سيدى أحمد " و "توسلت" بسيدى إبراهيم " .. وقد يكتفى بمجرد ذكر اسم الولى فى صيغة النداء ، والكتب الصفراء الصغيرة تغذى الاهتمامات اليومية لذوى الحاجة !

وقد تمتد هذه - القدرات الخاصة - إلى بعض تلاميذ الولى وأتباعه ولكن لتحقيق مآرب دنيوية ، بل كان الحكام والولاة فى عصر سلاطين المماليك والعصر العثمانى ، يتنافسون فى الاتصال بهؤلاء الشيوخ والتقرب إليهم والظفر برضاتهم ! ..

فكان أمراء مصر وقضاتها يترددون على الشيخ " الدمرداش " ٩٥٤ هـ يلتمسون " تقبيل يده فلا يلقى لهم بالاً " ! .. وكان سلاطين العالم الإسلامى يكاتبون الشيخ " البكرى " ٩٩٤هـ، ويهدون إليه ويلتمسون النصح والإرشاد ، ويستجيب لشفاعته ولاة مصر ، ويختلف لزيارته كل يوم جمعة الوزير " سنان باشا " فيقبل يده ويأتمر بأمره ! .. وبالطبع ، لست فى حاجة لإيضاح أن تقرب الحكام إلى هؤلاء الشيوخ ، كان ضمانًا لرضا الرعية عن ظلمهم وطغيانهم !

وبالنسبة للأقطاب والأولياء فهناك اعتماد على قدرة إلهية والمفترض أن يتذكر دائمًا ، أن كل شىء يحدث باذن الله وأمره ، والقصة الأسطورية الشهيرة عن الطفل الذى أحياه السيد البدوى ، تصف شفاعة - فورية الحدث - ومعجزة حققها البدوى بالرجوع النهائى إلى الله ، فقد جاءته أم الطفل تتضرع إليه بالله ورسوله " توسلت إليك بالله ورسوله " ..

قصة بسيطة تصور " تطويع " الشفاعة للقدرة الربانية ، فالقادر على إعادة الحياة هو الله، والبركة مزدوجة للوسيط - السيد البدوى - وللرسول .. " فمد سيدى أحمد البدوى يده إليه ، ودعا الله ، فأحياه الله تعالى ببركة دعواته وببركة جده " .. وهذه القصة تذكرنا على الفور بمعجزات السيد المسيح .

واللجوء إلى الولى يصحبه دائما الرغبة فى تحقيق أمنية أو رجاء ، أما الولى الذى لا يملك "الوساطة " أو " البركة " و " فورية الحدث " فلا حديث عن قداسته أو كراماته ! .. فالولى "المبارك " ليس مجرد وسيط متواضع يلتمس رجاءً من الله .. وإنما يجب أن تتبلور فعالية شفاعته وتزامن البركة الموحاة إليه .. باعتباره أميرًا فى " الديوان السماوى " !!

والأولياء فى المجتمع المصرى يعكسون طبقية الواقع الذى ينتمون إليه ، وهم جميعًا يمثلون لمريديهم نوعًا من الخلاص ، أو الأمل فى الخلاص ، حين تواجههم الحياة بهمومها .. والوعى الغريزى يحول التاريخ إلى أسطورة ، والخرافة إلى جزء من النسيج الدينى ، والموتى إلى مؤثرين وفاعلين فى الحياة ، فالشعب يصنع تاريخه وأساطيره وموروثه الفكرى ودينه الخاص فى كل لحظة !

والقرآن الكريم يحدثنا فى بعض آياته عن " أولياء الله " دون تحديد لدور هؤلاء الأولياء .. والله ذاته " ولى " والرسول " ولى " والمؤمنون الصالحون " أولياء " وطبقًا للنص القرآنى فان هؤلاء الأولياء " لاخوف عليهم ولاهم يحزنون " وبالتالى فان لفظة ولى تتطلب معنى أكثر خصوصية من لفظة " قديس " .. وهذه الآيات ، تدعمها الأحاديث الشريفة ، يمكن أن توضح لنا أساس الاعتقاد فى الأولياء .

والولى تفيض عليه " الأنوار الإلهية " ويحمل " نور النبى " بما يعنى أنه حاز معرفة مباشرة بالله ، وعلمًا تجاوز علم البشر من عامة الناس ، وكما يقول " الشيخ أحمد رضوان " أشهر أولياء صعيد مصر : " هناك نوعان من المعرفة : المعرفة الظاهرة العادية ، ومعرفة باطنية تملأ القلب وتسر الروح "

وقد لايُعرف الأولياء - بصفة الولاية - فى حياتهم ، بالرغم من وجود بعض الاستثناءات مثل " الشيخ موسى " الذى عاش بالكرنك ، وكان يمنح البركات والإرشادات من خلوته !

ويقول الشيخ " محمد الطيب " أن الله أخفى خمسة أشياء فى خمسة أخرى :

١- فى يوم الجمعة ، أخفى ساعة إجابة الدعاء .

٢- فى العشر الأواخر من رمضان ، أخفى ليلة القدر .

٣- فى حياة الإنسان ، أخفى لحظة خروج الروح من الجسد .

٤- فى علم الغيب ، أخفى يوم الحساب .

٥- وبين الناس ، أخفى الله أولياؤه .

ويأتى على رأس طبقات الأولياء " الغوث " أو ما يعرف بـ " قطب الوقت " له الهيمنة على ديوان الأولياء .. ويذكر الشيخ أحمد رضوان كيف أنه بعد خمسة وأربعين سنة من تأنيب النفس وتحمل كافة الآلام والمشاق ، أصبح هو نفسه " غوثًا " ، وكيف أن الرسول قد أخذ بيده وقدمه إلى جميع الأولياء!

والمعايير الرئيسية للولاية هى المعجزات أو الكرامات ، التى تحدث فى حياة الولى وبعد وفاته ، وظهوره فى الأحلام والرؤى ، وتؤكد سير الأولياء على الصفات الإيجابية فى شخصية الولى ، لكنها - فى مجملها - تظل ثانوية الأهمية بجانب الكرامات ، وبركة الولى يمكن أن تنتقل إلى سلالته وأتباعه وزواره ، وضريح الولى ، وما حوله ، يشع بالبركة ، وزيارة خاطفة

إلى هذا الضريح فى أيام معينة من الأسبوع ، مع بعض الطقوس ، يحظى المحب أو الزائر بالبركة والمدد !

وتأكيداً على التوسل بشفاعة الولى عند الله ورسوله ، يقول الشيخ أحمد رضوان : "يستطيع الأولياء أن يحصلوا على كل ما يريدونه من ربهم ، لذا فمن الواجب أن تطلب عونهم عند ربهم : لجلب منفعة أو لدفع مضرة ، ما دام الله لم يصدر قراره بعد "!

بصمة نبوية فى قلب مملكة الأقطاب :

فى كل من ضريح إبراهيم الدسوقى ، وضريح السيد البدوى ، حجر مقدس عليه أثر لقدم ضخمه ، يزعم أنها قدم الرسول محمد ، وأن هذه الآثار كانت بالقدس عندما أسرى به ، فى ليلة الإسرار والمعراج .

ويسود الاعتقاد بأن أضرحة الأقطاب تحظى بزيارات الرسول ، مما يسهم فى فعالية شفاعة أبطال الدلتا ! .. وتفيض البركات ، فالولى الذى حظى بالاختيار الإلهى .. قد حظى أيضًا برضاء رسوله ، إذن فهو جدير بالكرامات والتوجه إليه بطلب الشفاعة !

وبالرغم مما تشهده مصر - والعالم - حاليًا ، من تطورات تاريخية هائلة أثرت فى جميع المجالات ، إلا أنها ستظل الحافظة للاعتقادات الموروثة ، ذات الاشكال المثيرة للخيال .. من نذور وأذكار وموالد وقصص وأساطير .. وسيظل الملايين ينجذبون إلى السيد البدوى والدسوقى والشافعى الذين - دون أدنى شك - لن يتخلوا عن إنقاذ العالم من نهاية محتومة.. !!

ببليوجرافيا

١- إبن إياس ، أبو البركات محمد بن أحمد الحنفى : " بدائع الزهور فى وقائع الدهور " تحقيق ، محمد مصطفى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٢ - ١٩٨٤ .

٢- أحمد شفيق باشا : "مذكراتى فى نصف قرن " الجزء الأول - القاهرة ، ١٩٣٥ .

٣- أمين سامى باشا : " تقويم النيل " - عصر اسماعيل - دار الكتب المصرية ١٩٣٦ .

٤- بن تغرى بردى ، أبو المحاسن جمال الدين " النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة " دار الكتب المصرية ، ١٩٢٩ - ١٩٥٦ .

٥- الجبرتى ، عبدالرحمن بن حسن : " عجائب الآثار فى التراجم والأخبار " لجنة البيان العربى - القاهرة ، ١٩٦٤ - ١٩٦٧ .

٦- على باشا مبارك : " الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة " المطبعة الكبرى الأميرية ، بولاق ، ١٣٠٥ هـ

٧- لين ، إدوارد وليم : " عادات المصريون المحدثين وتقاليدهم ، ترجمة : سهير دسوم ، القاهرة - ١٩٩١

٨- المقريزى ، أبو العباس تقى الدين أحمد بن على : " المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار " المطبعة الكبرى الأميرية ، بولاق ، ١٢٧٠ هـ

1- Biegman n : Egypt , Moulids Saints Sufis , London , 1990 .

2- Bleeker C . J " Egyptien Festivals " : Enactments in Religious Renewal , Leiden , 1967

3- Butler A . J : Court Life in Egypt , London , 1887.

4- Ebers G : Aegypten in Wort Und Bild (Egypt) - (L`Egypte) Stuttgart , 1881 .

5- Gilsenan M : Saint and Sufi in Modern Egypt , Oxford, 1973 .

6- Jong F : Aspects of the Political involpement of Sufi Orders in Twentieth - Century Egypt , New York , 1983 .

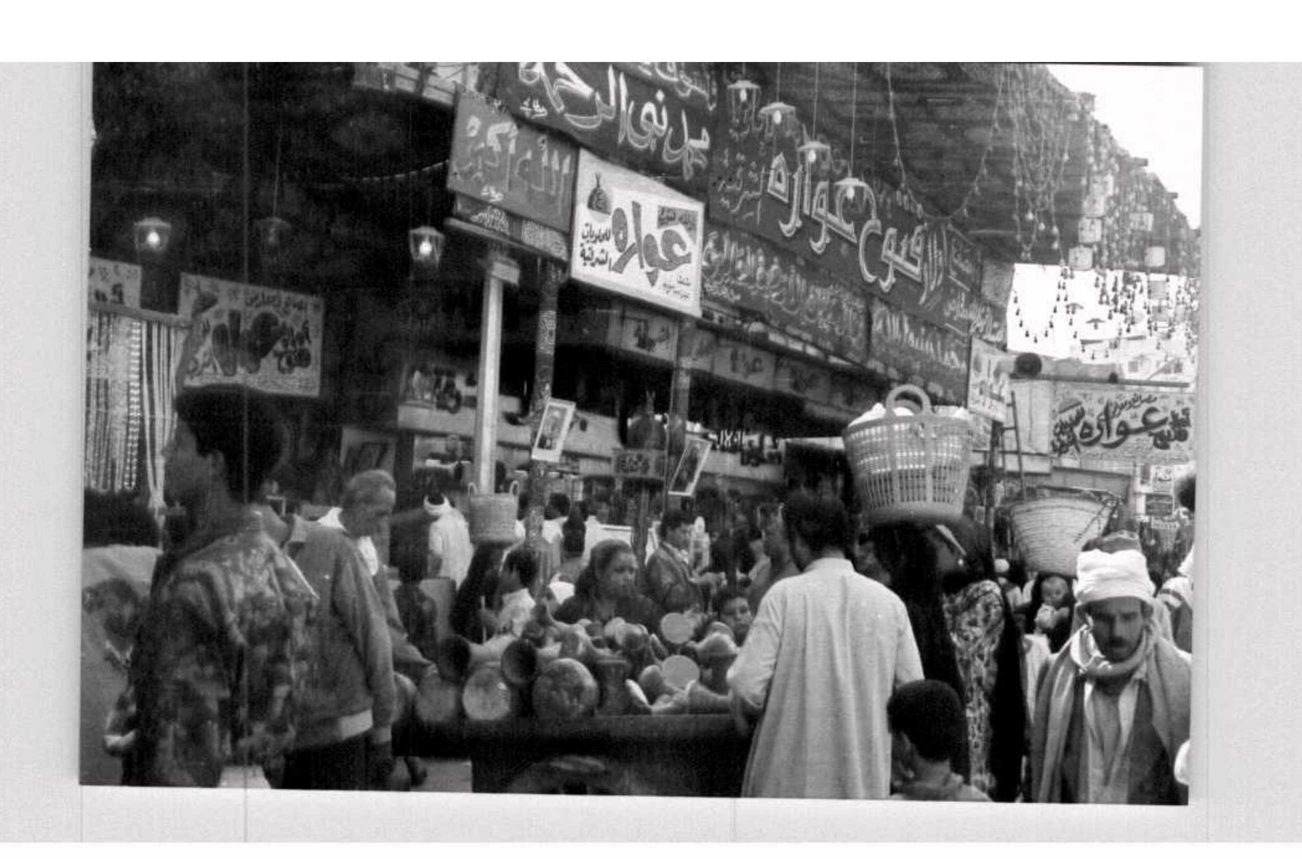
7- Mc Pherson J . W : The Moulids of Egypt , Cairo , 1941 .

8- Religion in the Middle East - Arbery editor , Cambridge , 1969 .

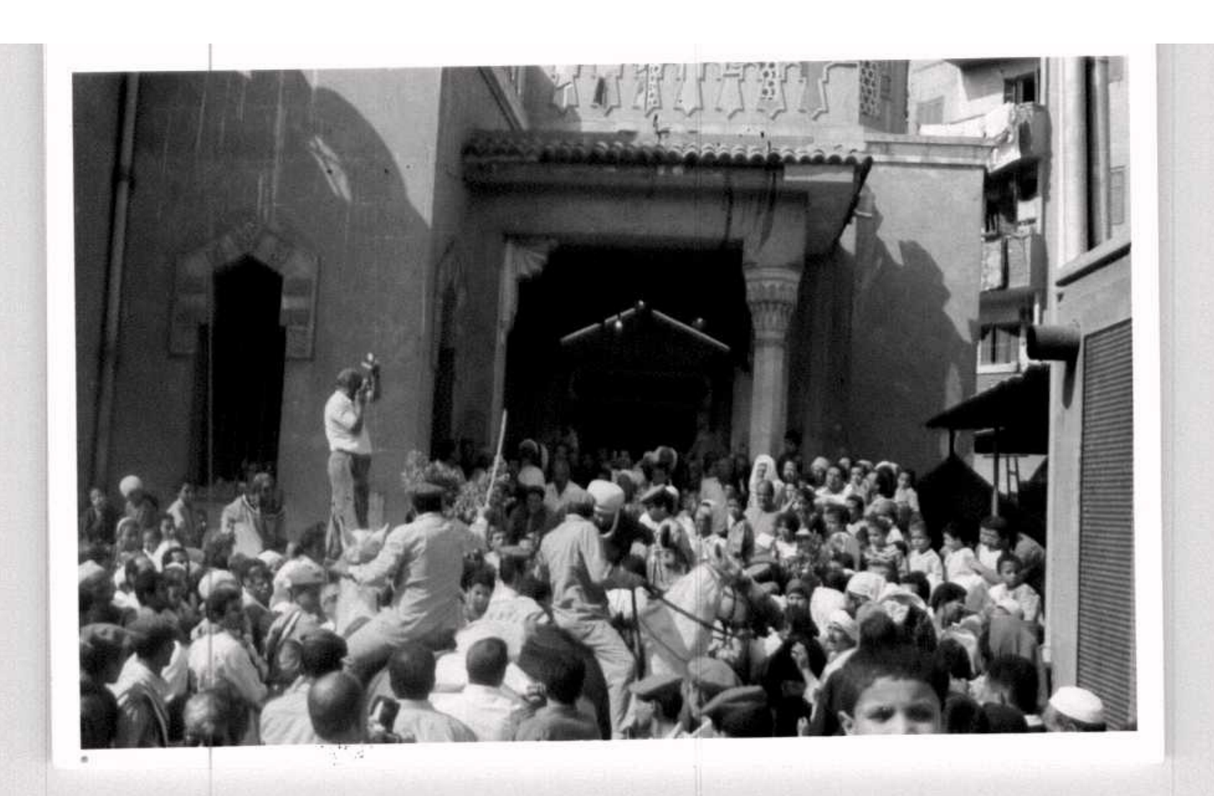
9- Smith M . : Readings from the Mystics of islam . London 1950 .

رقم الإيداع ١٠٨٣٩ / ٩٥
I.S.B.N. 977 - 5487- 40 - 4
طبع بمطابع الهداية - البراجيل - الجيزة

مشهد المولد الأحمدي بطنطا


محمد نبي الرحمة
الله أكبر
عواره
للحلويات الشرقية
عواره

خليفة السيد البدوى خارجاً من مسجد البدوى
ليطوف بموكبه شوارع مدينة طنطا



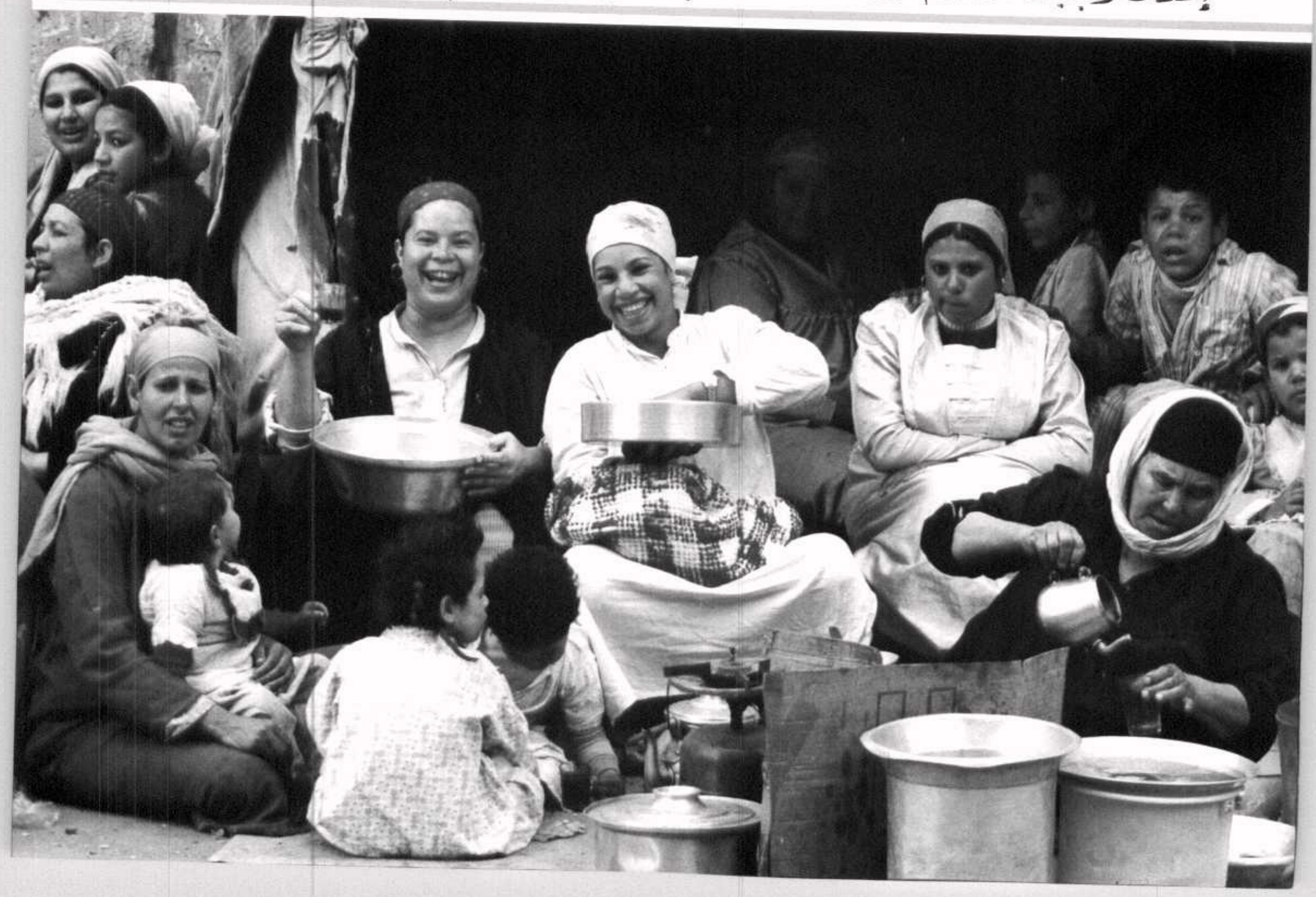
« فتح عينك تاكل ملبن » من أهم مظاهر الموالد



مشهد من مولد « الست دميانة »

الشهير بميت دمسيس بالدقهلية





إعداد وجبات الطعام والشاى لأحباء سيدى ابراهيم الدسوقى



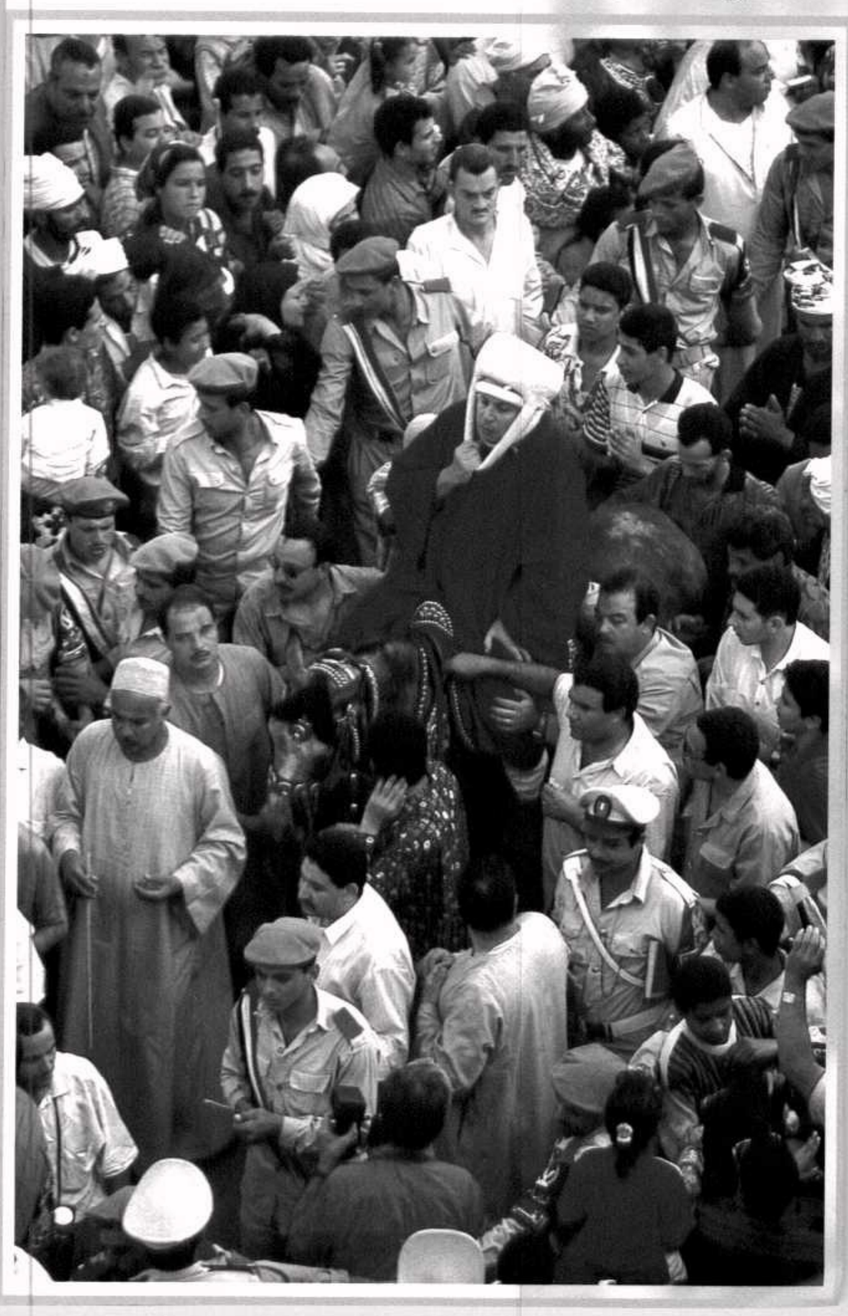
جموع المريدين داخل جامع السيد البدوي خلال الاحتفال بذكرى مولده

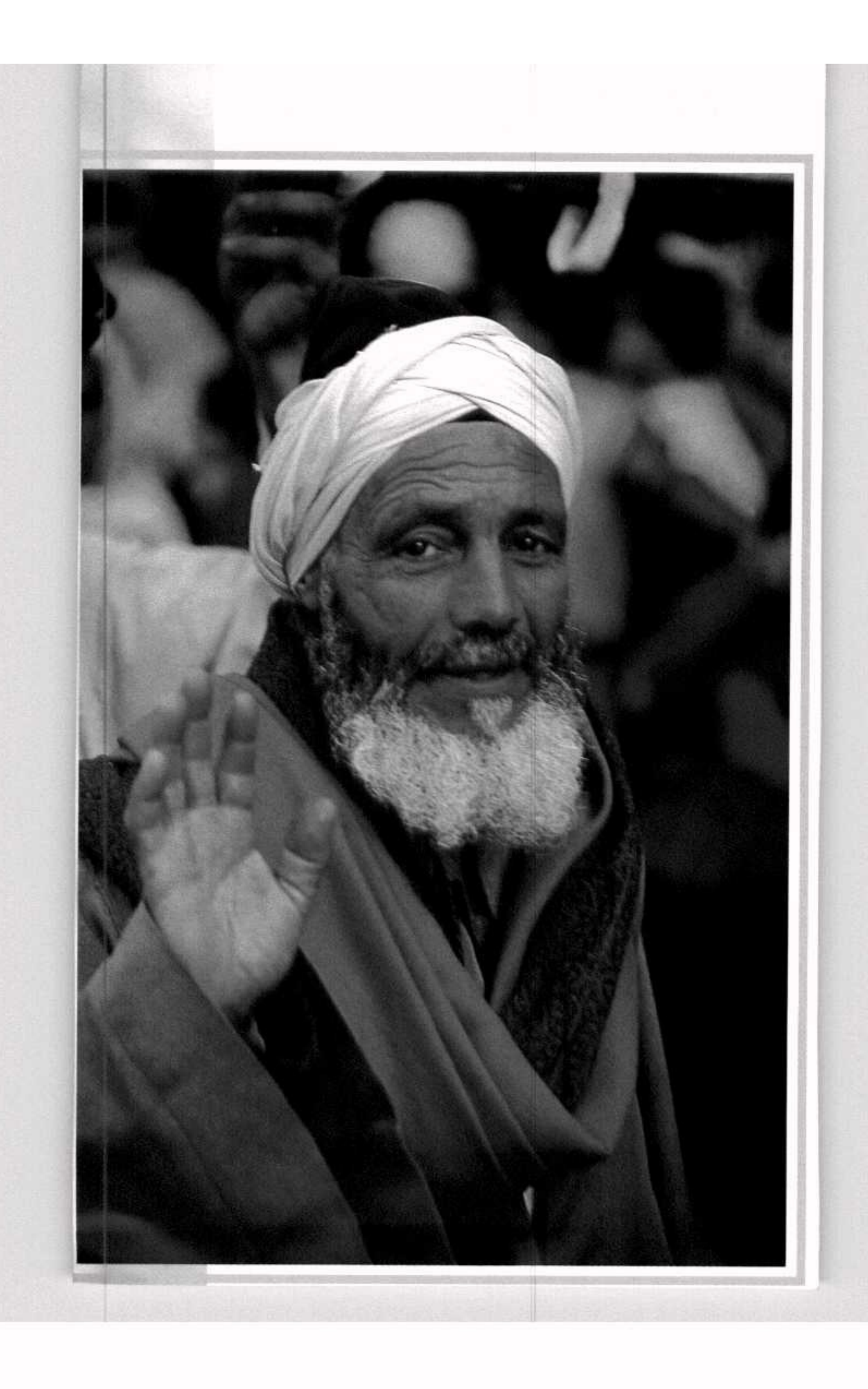


الطواق بالكسوة الجديدة لضريح أبي الحجاج



خليفة السيد البدوى فى الليلة الختامية لمولده





« زفة » مولد سيدي أبي الحجاج بالأقصر

